الرواية الحائزة على جائزة أخبار الأدب للرواية

محمد إبراهيم قنديل

ظل التفاحة

رواية

دار نهضة مصر

t.me/qurssan

العنوان:

ظـل التفـاحـة

تأليف:

محمد إبراهيم قنديل

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

جميـع الحقـوق محفـوظـة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظـــر طبــــع أو نشــــر أو تصـويـــر أو تخـزيـــن
أي جــزء مــن هــذا الكتــاب بأيــة وسيلــة إلكترونية أو ميكانيكية.
أو بالتصويــر أو خـلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريـح من الناشــر.

الترقيم الدولي: 978-977-14-5432-8
رقـم الإيــداع: 19258 / 2016
الطبعة الأولـى: يناير 2017

تليفـون: 33466434 - 33472864 02
فاكــس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E- mail: publishing@nahdetmisr.com

دار نهضة مصر للنشـــر
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938
21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

إهـــداء

إلى الذين أحبهم ويحبونني
وإلى الذين أكرههم ويكرهونني
وإلى الذين لا يعبئون بي ولا أعبأ بهم.

t.me/qurssan

ليه يا حبيبتي ما بينا دايمًا سفر
دا البعد ذنب كبير لا يُغتَفَر
ليه يا حبيبتي ما بينا دايمًا بحور
أعدي بحر ألاقي غيره اتحفَر
عجبي!

(صلاح جاهين)

الفصـل الأول

t.me/qurssan

- 1 -

كلما أطلَلْتُ من هواجسِــي على العالَم صفعني زئيرُ الرياح - يَتردَّدُ صداهُ كوحشٍ يعلنُ ســطوتَهُ وعنفوانه، ووتَّرَني نقرُ الثلجِ على ســقفِ القطــار وجوانبِــه، وأرعبَنــي الإظلامُ التــامُّ الذي لا يجرحُه ســوى وهجِ الســجائرِ الخافت وأضواءِ ســياراتٍ متقطعة في الطريق الموازي لسكةِ القطار وصدى لغطِ الركابِ البعيد. بدَت الأمورُ الآنَ وقد استقرتْ تمامًا في دائرةِ أسوأ الاحتمالات.

لم أعرفْ ماذا أفعلُ، لكنّي كرهتُ البقاءَ في مكانِي مُطارَدًا بتخيلاتٍ عــن الماء الذي يجتاحُ القطــارَ وأنا على أحدِ المقاعد وحيدًا أُحَدِّقُ في ظلمةٍ تفتحُ جوفَها لتبتلعَ مصيري ومصيرَ عالَمِي الذي بدا لأولِ مرةٍ وثيقَ الصلةِ بي.

t.me/qurssan

لأولِ مــرةٍ يا علاءُ ســيحدثُ لكَ ما يحدثُ للنــاسِ، لن تبيتَ وحدكَ جوعانَ لأيامٍ تلتقطُ الخبزَ الجافَّ من سلةِ المهملاتِ تغمسُه في الشاي لتشبَع، لن تقترضَ جنيهاتٍ من أجلِ مواصلةٍ تَحملُكَ إلى ندوةٍ أدبيةٍ، أو امتحانٍ لا تملكُ ترفَ التفكيرِ في كيفيةِ العودةِ منه، الآنَ ســيحدثُ لكَ مــا يحدثُ للناس، لكنْ حتى حينَ اتحــدَتْ أقدارُ المجموعِ بقدَرِكَ كان هلاكُهم وهلاكُك.

كيفَ يُفَسِّــرون رغبةَ الإنسانِ ألَّا يكونَ وحدهُ إنْ لم يكُنْ بقايا ثقافةِ القطيــعِ، التــي ورِثَها عن أجــداده الأوائلِ مــن دوابِّ العالَمِ وطيوره؟! الخوفُ من اتســاعِ الوجــودِ، وتوتُّرُ الحواسِّ في تلــكَ الوحدةِ كأنهُ في انتظارِ مُفترِسٍ يقتحمُ كُوخَه. كنتَ دائمًا وحدَكَ، لكنَّ شيئًا لم يفلحْ من قبلُ في إيقافِك أو تخويفِك، ولا الآن. لا يملكُ شيءٌ - لا مطرٌ أو إعصارٌ أو طوفــانٌ أو حتــى نهايةُ العالَــمِ - أنْ يُخضِعَكَ لتستســلمَ إلا بإرادتِكَ وعجــزِكَ، وأنتَ بعيــدٌ كلَّ البعدِ عن العجزِ والاستســلام، حتى لو كنتَ وحيــدًا في وجهِ الكَوْن، فلتنَم الآنَ وتمنحْ هذا الجسَــدَ المُتعَبَ راحتَهُ وســلامَه؛ فغدًا ـ ولا بُدَّ ســيأتي الغد ـ قد لا تملكُ وقتًا للنومِ حتى في عربةِ قطار.

استيقظْتُ مفزوعًا على صراخٍ ونداءاتٍ من كلِّ مكان، ركابُ العرباتِ الأخرى يغادرونَ القطارَ في هلعٍ، بعد أنْ ضربَ البرقُ جَرَّارَ القطار فقتلَ الســائقَ وبعضَ الركاب، ولا أعرفُ كيفَ أخذني النومُ فلم أسمعْ أصواتَ الانفجارات، أو لعلها هي ما أيقظني، لا أذكُرُ في الحقيقة، ولا يجمُلُ بي الكــذبُ، فــلا يمكنني التلاعبُ بالوقائع، ولا أجدُ في نفســي إلا احتقارًا

بالغًــا لمن يُزَوِّرون الوقائــعَ طمعًا في تعاطُفٍ ومدح، أو تخوفًا من لومٍ ومســئولية، فالواقعُ هو الواقعُ، شــاءتــهُ الأقـدارُ ومنحتْهُ وجـودًا دامـغًا ممهورًا بختمٍ مقدَّس، وما دمتُ قد تصديتُ لحكايته فسأكونُ أمينًا إلى أبعدِ حد.

قفــزتُ من العربةِ إلى حرمِ القضبان. وقــفَ الخلقُ ينظرون اندلاعَ النارِ في القطار تحتَ زخاتِ الثلجِ والمطر، ومشيتُ وحدي مع القضبانِ مخلِصًا لهاجسٍ داخليٍّ وحيدٍ وضاغط كأنه وَحْي، أنْ أتحركَ بأيِّ وســيلة ولا أقفَ في مكانٍ مهما كانت المغريات. ركضتُ اتقاءً لآلامِ البردِ، وللبردِ ألــمٌ ناعمٌ حاد، خانتْني قدمــايَ بعد عدةِ كدماتٍ والتــواءاتٍ وجروح، فلجــأتُ إلى كوخٍ قريب، طلعَ النهارُ كأنهُ ليلٌ، ومرَّ اليومُ التالي أصعبَ من الأول، الأجواءُ تزدادُ صعوبةً والأملُ يتلاشــى من داخلي في الوصولِ إلى القاهرة، والأملُ في القاهرة نفسِها يخبو.

التزمتُ جانبَ الطريقِ الزراعيِّ، والتقيتُ كثيرًا من الموتى ومن هم على مشارفِ الموتِ في السيارات على الطرق، وفي البيوت التي غمرَها الثلجُ والماء، تواترتْ إشــاعاتٌ في الطريقِ أنَّ الموجَ أزاحَ بلادًا ومحاها، وواصلتُ الســيرَ على غيرِ هدى، وصلتُ القاهــرةَ فلم أجدْها، كعادتِها قاتلةٌ متمرسةٌ للآمالِ والأحلام، المدينةُ التي كان الناسُ لحمَها ودمَها، لم يبقَ منها ســوى جلدٍ على عظام، أطلالٌ منكمشــةٌ مُبَلَّلة ســاكنةٌ سكونَ المقابر، مَبانٍ متهاوية وحيطانٌ نحيلةٌ كأجسادٍ عارية، وبِرَكٌ تعلو وتتصلُ بين طرفةِ عينٍ وانتباهتِها، وبدا حينها الدخولُ إليها ضربًا من الجنون!

t.me/qurssan

لو ســألتَني قبلَ لحظاتٍ عمَّا أريده لوجدتَ إجابتي ملتصقةً بعلامةِ اســتفهامِكَ قبلَ أنْ تبلعَ ريقَك، أريدُ الذهابَ إلى القاهرة، وســرتُ في العاصفــةِ ليلةً ويومًــا؛ لأصلَ إلى القاهرةِ، وفي عمقِ إجابتي المباشــرة ســتجدُ إشارةً لطيفةً إلى حالةٍ من الميلِ إلى تلكَ المدينةِ القاسية، كان يمكنني الوصولُ إلى قريتي أســرعَ وأســهلَ من وصولي إلى هنا، وربما كان لديَّ هناكَ أكثرُ مما لديَّ هنا، لكنهُ شيءٌ لا يُفَسَّر، ندَّاهةٌ كما رآها الذهنُ الشــعبيُّ وسمَّاها يوسف إدريس، والآنَ أقفُ على أعتابِها وحيدًا متعبًا ويأتيني الموتُ من كلِّ مكان، لكنها لا تفتحُ ذراعًا ولا تقيم جدارًا.

لو أعدتَ الســؤالَ عليَّ الآنَ، فســتجدني منقبِضَ الصدرِ خائرَ العزمِ وخائبَ الأمل، ســرتُ في العراءِ وحيدًا، فلم يكُن بي ما بي من الوحدةِ الآن، وحاصرتْني العاصفةُ فلم أجِدْ برودةً وحزنًا كما أجدُ في قلبي الآن، بنــتُ الملعونــةِ مــدَّتْ لي حبالَ الأمل علــى غاربِها وتركَتْنــي في آخِرِ المشوارِ دون وصول، تلفتُّ حولي أبحثُ عن إشارة، وانغمستُ في قلبي أتحســسُ الصوتَ الذي صحبَني في رحلتــي، ودفعَني دفعًا إلى رصيفِ الغربةِ والوحــدة بعيدًا عن حمى أهلي ودفءِ حضنِهم، فلما جئتُ، لم أجدهُ شيئًا، وقال الشيطانُ لمَّا قُضِيَ الأمرُ: يا كلابَ الإلهِ المدللة، ارفعوا رءوسَكم إليَّ، فأنا وعدتُكُم فأخلفتُكم، وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلا أنْ دعوتُكم بما تشــتهي أنفسُــكم، فاســتجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسَــكم، وامسحوا عن جباهِكم الذهولَ والتوسُّل، فلم يعُدْ لكم إلا أنا وليس لي سواكم، نيئس معًا ونموتُ معًا إلى عدمٍ بلا ضفاف.

- 2 -

أنا علاء توفيق، علاء محمود السـيد توفيق، وحيدٌ كالصحراء، ورقيقٌ كالخجـل، وعملـيٌّ كالبندول، وملعونٌ بنفسـي التي تتحـدثُ إليّ كما تتحدثـونَ إلى بعضِكم. اكتشـفتُ ذلك بعدَ فـواتِ الأوان، ظننتُهُ وحيًا يرشـدُني، لولا ما كان من أمري على عتبةِ القاهرةِ في شـبرا، يتنزلُ عليَّ الغيثُ سيولًا وثلوجًا، ويحاصرُني الماءُ الذي بلغَ أرنبةَ قضيبي فجمَّدَها.

المدينـةُ الغارقـةُ من أمامي والخـلاءُ الغارقُ مـن خلفي، وصوتٌ داخلـي يتحدثُ، يُعطي الحكايةَ مسـارًا خاصًّا، ويعيـدُ ترتيبَ فوضايَ الداخليةِ، يطلبُ مني أنْ أتزودَ للسـفرِ الطويل، قلتُ: **أستريحُ وأحتمي في محطةِ المترو حتى تقلعَ السـماءُ وتبتلعَ الأرضُ ماءَها وتهدأَ ثائرةُ الريح**، فنهرَني وقال: **سـآوي إلى جبلٍ يعصمُني من الماء، والجبلُ هنا مقطمٌ متهالكٌ، سـقطَ من قبلُ على سـاكنيه، سينخُره الموجُ ويمتطيه الثلجُ، فعُد من حيثُ أتيتَ، وتَعَلَّمْ، إنْ نزلَ الطوفانُ أو الطاعونُ بأرضٍ لا تخرُجْ منها إلا فوقَ حمارٍ أو نعش**، قلتُ نبوءة، شيءٌ يُصلِحُ ما بين اللهِ وبيني.

ورجعـتُ علـى عقِبي، لا أدري الآنَ ولا أملكُ أنْ أجزمَ: هل كان نداءً إلهيًّا أمْ مجردَ خاطرةٍ مرَّتْ في عقلي من مقالٍ علميٍّ قديم؟! ربما قرأْتُ أنَّ البحرَ سـيهيجُ وتنهدمُ سـدودُ النهرِ وأنَّ التيارَ العذبَ سـيجرفُ تيارَ

t.me/qurssan

البحرِ ويلتقيان في رأسِ الدلتا، أمَّا مقعدَتُها الرابضةُ على أطرافِ البحرِ، فستغرقُ في أولِ الإعصارِ ويسكُنُ تيارُها أسرعَ من غيره، حين أستعيدُ تلك اللحظةَ الغائمة، أوقِنُ داخلي أنَّ دوافعي كانت من الهشاشةِ بحيثُ لو تحدثْتُ إلى شخصٍ واحدٍ وناقشْتُ معهُ ما أفعلُ لتراجعْتُ عنهُ في أيِّ مرحلةٍ من مراحلِ الرحلة، رحلةِ العودةِ المميتة إلى البحرِ الهائج والارتماءِ في أحضانه لإنقاذِ نفسي منه، كان يمكنُ لأيِّ شيءٍ أنْ يُثنيَني عنها، لكنني أكملتُ الطريقَ كمنوَّمٍ مغناطيسيًّا، واكتمَلَ الطريقُ كأنَّهُ مُمهَّدٌ تمامًا، ما أغرَبَ المسارَ وما أهوَنَ المسيرةَ!

رجعتُ على عقبي ببلاهةٍ أُحسَدُ عليها، وبطريقةٍ ما تمكنتُ من الصمودِ ليومَينِ آخَرين، حتى وصلْتُ إلى أطلالِ بلقاس الغارقة، اختبأتُ في سياراتٍ مهجورةٍ يحصرُها الثلجُ، ولجأتُ إلى بيوتٍ مسكونةٍ بالموتى المتجمدين من البرد، وأكلتُ بقايا وجيَفًا، ورأيتُ القرى والمدن بأهلِها ومعالمِها ترقدُ في قاعِ البحر، لا أدري كيف تجنبْتُ في مساري هيجانَ البحرِ ولا أذكرُ في أيِّ وقتٍ أو نقطةٍ في رحلتي بالضبطِ وجدتُني سابحًا على وجهِ الماء الهائج ومتشبثًا بشيءٍ من هنا أو هناك، لكنْ أذكرُ أنني ظللتُ في الماءِ سبعةَ أيامٍ بلياليها، وكان الثلجُ قد توقفَ وبسطَ البحرُ سلطانَهُ على الأرضِ الشاسعةِ كأنهُ هنا منذ آلاف السنين، لا يتوقفُ الرعدُ والبرق ولا يكفُّ المطرُ إلا لدقائقَ، ثم يعود غزيرًا ومرعبًا، وأظنني رأيتُ الشمسَ مرةً لم تتعدَّ دقائق، قبلَ أنْ أبصرَ الجزيرةَ بيومٍ أو يومين، كانت تعلو على سطحِ الماءِ في سكونٍ وهيبة، وعرفتُها حين رأيتُها من بعيد، لم تكن الجزيرةُ سوى جبل أبو

ماضي العزيز، أو ما تعذرَ منه على الغرق، مغطى بالثلج ومحاطًا بالماء مــنكل الجهــات.

وكنــتُ هناكَ حيًّا يخرجُ من المــاءِ زحفًا، ويهلوسُ بعباراتٍ لا معنى لها سوى احتفاءٍ بالحياةِ وتقديرٍ للنجاةِ الغريبة، وغرابتُها أنها حدثَتْ في قلــبِ العاصفــةِ، وحدثَتْ لمجنونٍ ســارَ وراءَ حَدْسٍ هَــشٍّ، مخالفًا كلَّ منطــق، بعدما كان قد وصلَ إلى أبعدِ نقطةٍ يمكنُهُ بلوغُها، كنتُ هناكَ حيًّــا أرتجــفُ على طبقةِ الثلجِ الكئيبة، وأســتعيدُ قوتي لأصلَ إلى قلبِ الجبل وأدفأ نقطةٍ فيه، فأحتمي بكهفٍ وأنامُ ملءَ جفوني حتى يوقظَني الوخَمُ ويطردَني النومُ عن سريره.

t.me/qurssan

- 3 -

ريانةً تجلَّتْ كأنسامِ السَّحَر، أنثى أولى أخيرة سنية، لم أحسبْ أنَّ الحياةَ يمكنُ أنْ تكونَ بهذا الكرم، وفي عزلتي الناجية لم أفطنْ إلى حقيقةِ ما ينقصُني، ويغرزُ غيابُهُ مساميرَ في لحمي، حتى لمحتُ صفية، معنى لكلِّ ما فررتُ منه، وتجسيدٌ لكلِّ ما عانيتُ لتفاديه، المرأةُ الحب القيد، ضمةُ الأنثى الطرية، وأنفاسُها الدافئةُ تلملمُ جسدًا مبعثرًا، تطهو العالَمَ بكفِّها الخبيرِ رغيفًا هنيئًا تلقيه بين يديكَ فيقيمُ صُلبَكَ ويسُدُّ جوعَكَ، وتتلوى في أحضانِكَ رقصةً خالدةً تعيدُ ترتيبَ فوضاكَ وتبعثُ الرغبةَ الخامدةَ في أعضائِكَ ميلادًا جديدًا.

على حافةِ الجنونِ، تعبثُ الوحدةُ بعقلي، ويمضغُ السكونُ أعصابي، أتوسدُ الشوكَ وأزدردُ المرارة، حتى لاحتِ انفراجةُ الوحدةِ بالصغارِ الثلاثة، لكنها لم تغادرْ ضلوعي، ولما بدت أمامي بجسدِها المبتل، فرَّ ذلك الطائرُ الثقيلُ الرابضُ على قلبي، وشممتُ رائحةَ البحرِ أخيرًا وكنتُ لا أشمُّ إلا الظلامَ مكتومًا ومتكوِّمًا.

- هل أحببتِ يا صفية؟ تضحكُ وتتقلبُ بعيدًا عن ذراعِي.

- في الكلية داعبَتْني الأحلام، لكنَّ الأولادَ كانوا ينظرونَ دائمًا لمن تلفتُ أنظارَهم، وزواجي كان مباغتًا، لم يُعطِني فرصةً لأشعرَ إلا بالزواج.

- أنا أحببتُ وخنتُ.

- تندم؟

- لا أعرفُ الندم، جربتُ أنْ أُغرِقَ نفسي في رثاءِ ذاتي، وفي الحنينِ إلى شيءٍ ما، لكنَّهُ كان دائمًا شعورًا غريبًا سطحيًّا، ينطفئُ في أولِ نظرةٍ من امرأةٍ أخرى.

- عرفتَ الكثيرَ من النساء؟

- لم أعرفْ ولا امرأة، لم أكنْ أعرفُ إلا ما أريده منهن، جنسٌ مجانيٌّ.

- وهل كنتَ تجدُ فيه لذة؟

- لذةُ الحصولِ عليه دونَ انشــغالٍ بما بعده، أما لذتُهُ هو فلم أذُقْها إلا لِمَامًا.

- ما الذي كان يدفعُكَ إليه إذن؟

- شــيءٌ ما في عيونِ المرأةِ يتحداني لأثبِتَ جدارتي بلحمِها العاري، جوعٌ عميقٌ كسردابٍ مُوحِش.

- وحبيبتُك؟

- لقاءاتٌ عابرة بين أسوارِ الجامعة، ويقينٌ كاذبٌ يحثو الصمتَ على القلب، كأننا لا نجدُ ما نقولُ إلا نُدفًا من أخبارِنا وحكاياتِ الآخَرين، تلتقــي عيونُنا فتطرقُ خجلًا وأطــرقُ خزيًا من جمالِ ما فيهما من محبة.

وتقتربُ فتطبقُ شفتيها على فمِي:

t.me/qurssan

- أنتَ بئرٌ لا قرارَ لها، عاشقٌ خائن ونبيٌّ كافر، مَنْ أنتَ بالضبط؟

- أنا غربة يا صفية.

- .....

كلُّ ما أؤمنُ به يخذلني، وكلُّ ما أتمسكُ به يتسربُ من يدي، عرفتُ أكثرَ مما عشتُ، وعشتُ أقلَّ مما أردت، كنتُ أتمددُ على فِراشٍ، يمكنُ طـردي منهُ إلى الشـارعِ في الصباح، فأغرقُ في أحـلامِ اليقظةِ والمنام مَلِكًا ثريًّا يجوبُ العالَمَ ويقولُ للشـيءِ كُنْ فيكون، أحملُ في جيبي ما يُبَلِّغُنـي بالـكادِ حدَّ الكفاف، فأبدِّدهُ في جلسـةٍ أو علـى كتابٍ أقرؤهُ وأبيعُـهُ بخمـسِ ثمنـه أو أقل. في الغربـةِ جنونٌ يَنبُـتُ على هامشِ الحرية، حالةٌ من الطفوِ الذي يغري بأنَّ كلَّ شـيءٍ مؤقَّتٌ زائلٌ، لا أذكرُ أني تألمتُ من شـيءٍ، حتى وأنا أصارعُ الغرقَ، كنتُ أسـبحُ كأنهُ الفعلُ الوحيـدُ المعقـولُ في العالَم، وحين يخترقُني البـردُ ويعصرُني التعب، كنتُ أسـتريحُ كأنني طفلٌ ينامُ في حِجْرِ أُمِّه، آه يا صفية..

- ماذا ستفعلُ مع الأولاد؟

- سـأعلمُهم ما أعرفُ، كلَّ شـيء؛ ربما يسـتطيعونَ الخروجَ من هذا السجنِ ذات يوم، فيجدون ما يعينُهم على العالَمِ في الخارج.

- هل تظُنُّ غيرَنا نجا من هذا الطوفان؟

- لا أعرف، لكنني أحسُّ أنّه مجردُ عثرةٍ في مسـيرةِ الإنسـانية، ربما مصرُ أو جزءٌ منها غرِقَ لكنْ ما زالَت في الأرضِ بقية.

- لماذا لا نخرُجُ الآنَ إذَن؟! البحرُ هادئ والأجواءُ صافية، يمكننا صنعُ قارب، لنبحثْ عن الحياة يا علاء، حياة يمكننا مشـاركتُها مع ناسٍ حقيقيين، لا ذكرياتٍ وأشباح.

- ربما سيأتي هذا اليوم يا صفية، لكنني الآنَ مُتخَمٌ بتلك الحياةِ التي تتحدثين عنها، مُسَـمَّمٌ ببقاياها السـارحةِ في دمي، هذه الجزيرةُ استشـفاءٌ لي، وأنتم أكثرُ ما يمكنني احتمالُه من البشر، وأكثرُ مما أريدُ بكثير.

- تهربُ من الغربةِ إلى الغربة؟!

- لا، بل أسـتريحُ من الغربة، ألتقطُ أنفاسـي قليلًا، هناكَ -إنْ كانَ لا يزالُ هناك- أتجولُ بين الغرباءِ مهزومًا بوجودِهم، أتحسسُ موضعَ قدمـي وعيني، وأقبضُ يدي جانبي كتمثال، كانت رغبتي الوحيدةُ أنْ أكتبَهم، أتخلصَ من سـطوتِهم بتجريدِهـم إلى كلماتٍ، لكنَّني كنتُ أتراجعُ كلَّ مرةٍ وأستسـلمُ للعَيْشِ مجردَ شـبحٍ من أشباحِهم الشـاردة، اليومُ الذي قامت فيه العاصفةُ، كنتُ عائدًا إلى القاهرة، أحملُ روايتي الأولى في رأسـي، أخططُ للانتصارِ عليهم في معركةٍ أدركُ تفاصيلَها، وأستعدُّ لها طوالَ عمري، لكنَّ ما حدثَ نبَّهَني إلى الخلـلِ الحقيقيِّ في علاقتي معهم، هزيمتـي أمامَهم لم تكُنْ إلا وهمًا ضَخَّمَهُ غيابي أنا.

- لكنكَ تناقضُ نفسَـكَ يا حبيبي.. أنتَ لم تفعلْ إلا ما تؤمنُ به، ولا يفعلُ ذلكَ إلا من له حضورٌ طاغٍ ووجودٌ دامغ!

t.me/qurssan

- الاختيــار له حدود يا صفيــة، كلُّ اختياراتِ الحيــاةِ محاصَرَة، هل تظنينَ أنني أتحدثُ عن الناسِ فقط؟ لا يا حبيبتي، إنني أقصدُ كلَّ من هو غيري، الله والناس، والله قبل الناس، فقد وهبني مســاحةً شاســعةً من الاحتياج والعوَز، وعمرًا من الركضِ المستمر لتحصيلِ الفُتــات الذي يتخطفونهُ منــي، لم أفعلْ إلا ما أؤمنُ به في حدودِ المتاحِ فقط، لكنني سرقتُ حين كان متاحًا لي أنْ أسرق، واشتهيتُ ما ليسَ لي وكذبتُ وخنتُ لأعيش، وكلُّ خطوةٍ كنتُ أسيرُها كانت تمضــغُ مني قطعــةً ثم تلقيها للــكلابِ حتى لم يبــقَ مني إلا ما يريدونَه، لا ما أريده.

آه يا صفية.. كأنكِ روحي، خرَجْتِ تؤنســينَ وحشــتي ثم عدتِ إلى الظلال تؤنسينها وتسحبين الحياةَ ومعناها.

- 4 -

- لم تحكِ لي كيفَ وصلتَ إلى الجزيرة؟

- قامــت العاصفةُ وأنــا في طريقِ المنصورة، توقــفَ الطريقُ ولم أســتطعْ الاستســلامَ للموت، كانت الحياةُ لا تــزالُ تدينُ لي بكِ، جمَعْتُ شــتاتَ نفسي، وعلى طريقةِ ملخصاتِ نهايةِ العام، التي أنقذَني تكثيفُها للمناهج في حالاتٍ دراسية لا تَقِلُّ تعقيدًا، رَسَمَ ذهنِي دائرةً وســطى كبيــرة للنجاة، وأخرجَ منهــا ثلاثةَ خطوطٍ كالأســهم، وفي نهاية كل ســهمٍ دائرةٌ أصغر، في الدائرةِ اليمنى: «كيــف أنجو؟!»، فــي الدائرة اليســرى: «ما حقيقــةُ ما يحدث بالضبط؟!»، في الدائرة الســفلى: «ما أسوأ الاحتمالات؟!»، قائمةٌ بســيطة لتســاؤلاتٍ مُلِحَّةٍ، وربما هي أكثرُ التساؤلات إلحاحًا في حياتِــي التي تتوقفُ على إجابتها في أســرعِ وقت، دائرةٌ عملية ودائرةٌ معرفية ودائرةٌ استشرافية.

كعادةِ الحياة، تفرضُ العمليَّ على المعرفيِّ والاستشــرافيِّ، بحســابٍ بسيط لمعَتِ الدائرةُ اليمنى أكثرَ من سواها، يمكنُ للتفكيرِ في حقيقةِ ما يحدثُ أنْ ينتظر، ويمكنُ أنْ يظهرَ في وقتٍ لاحق، ويمكنُ ألَّا يُفهَمَ على الإطلاق، وكم من الأحداثِ يحدثُ دون إدراكٍ وفهمٍ لطبيعتِه؛ ولهذا انطفأَت الدائرةُ اليسرى بسرعة وتلاشت خلفَها الدائرةُ السفلى؛ لأنَّ أسوأَ

t.me/qurssan

الاحتمالاتِ واردٌ بالطبعِ، واحتمالَ وروده - بينما تنتظره دون فعلِ شيء - أكبــرُ من احتمالِ وروده وأنتَ تتصرف، أو ربما تتســاوى الاحتمالات، لكنَّ فعلَ شيءٍ -مهما كان يائسًا - يبقيكَ مشغولًا وراضيًا عن نفسِك.

تمَّ الاســتبعادُ المنطقيُّ للدوائرِ التي يمكنُها الانتظارُ في ركنٍ مُخيٍّ أكثــرَ دفئًا وأريحيةً، حتى يأتي وقتٌ مناســبٌ لرفاهيــةِ التعاطي معها، وبَقِيَــت الدائرةُ العمليةُ وحيدةً تتوهجُ داخلَ عقلِي: كيف يمكنُ النجاةُ من تلك العاصفةِ دون تضييعِ وقت؟

رســمَ ذهني خطَّيْن واضحَيْن للنجاةِ، ولكن - لســخريةِ القدر - كانا متعاكسَــيْن، الخــطُّ الأولُ: أنْ أعــودَ إلــى أهلِي فهم أقــرب، لا تتعدى المســافةُ خمســين كيلومترًا، وكان لهذا الخطِّ ميزةٌ عاطفيــةٌ بالتأكيد؛ فحضنُ الأهلِ أكثرُ أمنًا وطمأنينة، لكنْ ليَكُن اللهُ في عونِ الأهل، فرغمَ قربِهم ورغمَ ميل القلبِ إليهم، فإنهم أقربُ إلى الســاحل وأكثرُ تعرضًا لشراســةِ العاصفة، من الخيارِ الذي رســمَهُ الخطُّ الثاني الذي يشيرُ إلى القاهرة؛ حيث البعدُ عن الســاحل والعاصفة، لكنَّ المسافةَ تتعدى مائةَ كيلو متر وعشــراتِ الكيلو مترات، والوصولَ إلى هناكَ أصعبُ وأصعب في هذه الأجواء والطرق المقطوعة، وكان عليَّ أنْ أختارَ بين الطريقَين.

لم يكُنْ في الأمرِ جديدٌ عليَّ؛ فمنذُ ولادتِي وأنا أتحركُ في مســاحةٍ محــدودة مــن الخيارات، بين بقــاءٍ خاملٍ وعقيمٍ في العزبــة، وابتعادٍ طَمــوحٍ ومثمــر، ودائمًــا كان التطورُ والمســتقبلُ يفرضان أنفُسَــهما، والعزبــةُ صغيرةٌ لا تتســعُ للتطور، ورغــمَ خصوبةِ أرضِها ودفءِ أجوائِها المفعمــةِ بالمحبة والســلام، فإنهــا لا تصلحُ لإنباتِ مُســتقبل، والحاج

محمود توفيق كان يُدرِكُ ذلك جيدًا، ويُشَـجِّعُني دائمًا على الإفلاتِ من أسـرِ العزبة، وحين جاءَ تنسـيقُ الثانويةِ العامة بـآدابِ القاهرة جلسَ معي:

- «مَصـر» بعيدةٌ يا عـلاء ومصاريفُهـا ثقيلةٌ علـيَّ، كلية الحقوق بجامعةِ المنصورة أقرب، لكنَّ مستقبلَكَ، أنتَ أولى به.
- سأعملُ بجانبِ الدراسة، أريد الآداب والقاهرة.

لم يجادلْني وعزَمْتُ وبكَتْ أمُّ علاء على ابنِها الذي سحرَتْهُ النداهة، لكـنَّ بكاءَهـا طاشَ بيـن طموحِ الابن ورضـا الأب فأطرَقَـتْ كعادتِها، وسافَرْتُ.

كنتُ أزورُهم كلَّ شـهرٍ يومًا أو يومين، أقضيهما في النومِ من تعبِ العمـل في كافيه أحيانًا أو في محل كشـري أو مندوب مبيعات أحيانًا أخـرى، وتباعدَت الزياراتُ وحلَّت الاتصالاتُ محلَّ أغلبِها، وهكذا بحُكمِ العـادةِ مِلْتُ إلى الخيارِ الأبعَد والأقلِّ عاطفيـة، بالاتجاهِ إلى القاهرة، لكنَّ السـفرَ إليهـا بدا خياليًّا فـي عاصفةٍ تزدادُ شراسـة، وحركةٍ تزدادُ صعوبة مع مرور الوقت!

المطرُ يتحولُ من بكاءٍ رومانسـيٍّ إلى سَـيْلٍ جامـح، ويرتفع الثلجُ ويمتـدُّ فـي طقسٍ قطبيٍّ بامتيـاز، والبرودةُ تخترقُ طبقـاتِ الملابس، جسدي يرتعشُ ليُقاومَ، وعيوني تتجولُ بحثًا عن مخرج، بدَت المنصورةُ عصفـورةً مذعورةً ابتلعَها وحشٌ رماديّ من ضبابِ المطرِ والثلج، كانت أبعدَ من الذهابِ إليها مشـيًا، وكان التخلي عن مكاني تحت الكوبري -

t.me/qurssan

للخروجِ وحيدًا تحت السـماء المفتوحةِ علـى مصاريعِها - يبدو جنونًا، لكنَّ الجنونَ أحيانًا يكونُ الطريقةَ المناسبةَ أو الوحيدةَ لفعلِ أمرٍ ما.

تشـبَّثَ عقلي بالقطارات، وحدَها تسـتمرُّ فـي كلِّ الظروفِ، كأنها هناكَ منذُ بدايةِ الخلق، هادنَت الديناصورات وقاومت الانقراضَ والتغيرَ المناخيَّ، ثم احتملَتْ حماقةَ الإنسـانِ وحروبه وذاكرتَهُ الهشـةَ على مرِّ القرون، تسـيرُ في قضبانِها المرسـومةِ، وتتجولُ بين المحطاتِ، كالحياةِ تمامًـا، لا تتوقفُ لأجلِ أحد ولا تُسْـرِعُ من أجلِ أحد، زادت حدةُ الرعد فخرجْتُ من مكاني أبحثُ عن وسـيلةٍ للحركةِ في طقسٍ تسـتحيلُ فيه الحركة، ربما عليَّ أنْ أسـرقَ سـيارةَ أحدِ الواقفيـن لتوصلَني إلى أقربِ محطةِ قطار وأجربَ حظي في الهروب، سـمعْتُ صراخًا قادمًا من سيارةٍ فحاولْتُ استكشـافَ الأمر بعيني، دون جـدوى، رفعْتُ الجاكيت كمظلةٍ فوقَ رأسِي، وجريْتُ بأقصى سرعتِي بين صفوفِ السيارات المتراصَّةِ على الطريق، متبوعًا بنداءاتِ الناس ودهشتِهم.

وصلْتُ إلى سيارة ملاكي داخلَها سيدةٌ مذعورة تبكي بكاءً هستيريًّا وبين يديها شـابٌّ مُسـتلقٍ خلف عجلـةِ القيادة، فتحْتُ بابَ السـيارةِ وسـحبْتُ الشابَّ النازفَ إلى الكرسـى الخلفيِّ وضغَطْتُ جرحَهُ بقميصٍ معه لإيقافِ النزيف، وجلسَـتِ السيدةُ بجواره، وقدتُ السيارة، تسللتُ بها من الشـريطِ الترابيِّ على جانبِ الطريـق، حتى نزلْتُ إلى الأراضي الزراعية في خليطِ الطين والثلج، وحولي الناسُ متفرقونَ كالنمل، يختبئُ البعضُ تحتَ الكوبري، ويجري البعضُ إلى المنازلِ المتناثرةِ هنا وهناك، وصلْنا المنصورةَ بعد ساعةٍ ونصف من القيادةِ الخطِرة، وأدخلْتُ الشابَّ وأمَّهُ إلى الطوارئ المزدحمة بالحوادثِ والإصابات، وأخبارٍ متواترةٍ بهياجِ

البحرِ وسـوءِ الطقـسِ في حزامِ المتوسـطِ كله، ودعْتُهُـم لأدْرِكَ قطارَ التاسعةِ الذي يصلُ إلى القاهرةِ بعد منتصفِ الليل.

وصلْـتُ إلى محطةِ المنصورة والقطـارُ يتحركُ على القضبانِ فقفزتُ إليه، جلسْتُ في إحدى العرباتِ وحيدًا، جاءَ الكمساري بعدَ خروجِنا من حدودِ الدقهلية، وكادَ يتجاوزُني لولا أنْ ناديتُه، اسـتغربَ وجودي؛ فيبدو أنَّ سـوءَ الطقسِ قد أقنعَ الكثيرين بالعدولِ عن السـفر والتزامِ بيوتِهم الآمنة، لكنْ من أتعبَهُ عقلُه، لا بيتَ له ولا ملاذ!

شَـقَّ القطارُ طريقَهُ واثقًا متهاديًـا، ودُرْتُ على نوافذِ العربة أغلقها، وتابَعْـتُ من ورائِها البروقَ والرعودَ وتوحشَ الرياح التي تطيحُ بكلِّ ما يقفُ على الأرض، بين حينٍ وآخَر كان القطارُ يتوقفُ في محطةٍ ليحملَ ركابَهـا، ويظفـرُ من كل وقفةٍ بقليـلٍ من المجانين الذيـن لم تردعْهم العاصفة، أو اليائسين الذين لا يملكون سوى الصعودِ إلى القطار؛ ليبلُغوا وجهتَهم في ليلٍ يزدادُ برودةً ورعبًا.

قبـل منتصفِ الليلِ بدقائق، وبعـد الخروجِ من محطةِ طنطا بقليل، صرَخَتِ المكابحُ وتوقفَت الرحلةُ، وانتشـرَ الخبرُ من عربةٍ إلى أخرى أنَّ الطريقَ مقطوعةٌ بمخلَّفاتِ العاصفة، شـجرةُ كافورٍ عجوزٌ تداعت على القضبـان، لمحتُ خيالَهـا العظيمَ في الليل، كانـت مدكوكةً في الأرضِ لعشـراتِ السـنين، لكنَّها لـم تسـتطع المقاومـة الآن، تملَّكَني رعبُ المُطـارَد، تحسَّسْـتُ جدارَ صدرِي الـذي يدقُّ بعنـفٍ صارخًا بضرورةِ الهروب، الوقوفُ في وجهِ الموتِ انتحار، الأشجارُ لم تستطِع النجاةَ.

t.me/qurssan

تحرَّكْتُ إلى العربةِ الأولى، بدا كأنَّ السائقَ وعمالَ القطارِ لديهم أخبارٌ عن حقيقةِ ما يحدثُ، هنا تخلَّصَ ذهني من سطوةِ الدائرةِ اليمنى قليلًا، وانزلقْتُ إلى الدائرةِ اليسرى بسلاسةٍ عزَّزَها الفضولُ، والتقطَتْ أذُنِي حديثَ سائقِ القطارِ والناسُ حولَه، عن هيجانِ البحرِ وفيضانِ النيل وغرقِ السواحلِ بمدنِها وقراها، وانقطاعِ أخبارِ الصعيدِ الذي داهمَتْه السيولُ والفيضانُ بعد أن انهارت سدودُ إثيوبيا والسد العالي، وبدا كأنَّ مصرَ كلَّها، وربما العالَمُ كلُّه، في براثنِ الهلاك، إلا ذلك القِطار الكامِنُ على أطرافِ طنطا، يُحدِّثُ نفسَهُ بالعودةِ إلى المحطة؛ حتى يطلُعَ النهارُ أو تنجلي العاصفة، لكنَّ السائقَ حسمَ الهمسَ الساري في جنباتِ القطارِ، بأنَّ الرجوعَ غيرُ مأمون والتقدمَ مستحيل، فلا مفرَّ من البقاءِ حيثُ انتهى بنا المُقامُ، فبقينا.

كنتُ معتادًا النومَ في المواصلات، لكني لم أنَمْ ولم أحتمل البقاءَ في مكانٍ واحد، فتركْتُ الركابَ متجمعين في العربتين الأولى والثانية يدلون بنظرياتِهم وذكرياتِهم، وسرتُ بين صفوفِ المقاعد أذرعُ القطارَ جيئةً وذهابًا أجهزُ على سيجارةٍ إثرَ أخرى، أستعيدُ الدوائرَ المرسومةَ في ذهنِي، وأعيدُ تطعيمَها بالحقائقِ الجديدة والهواجسِ المتنامية، بدا كأنَّ دائرةَ أسوأ الاحتمالات تزدادُ توهُّجًا واتساعًا لتبتلعَ باقي الدوائر، هو طوفانٌ إذن، إعصارٌ يجتاحُ البلادَ ومن عليها، ليس ثمة احتمالٌ أسوأُ من ذلك، ترددت في السنواتِ الأخيرةِ نبوءاتٌ مناخيةٌ حولَ نتائجِ التغيرِ في الطقس، تبدأُ بارتفاعِ حرارةِ الصيفِ وازديادِ الشتاءِ برودةً كل عامٍ عن سابقِه، وتهددُ بكارثةٍ تمحو مدنًا ومساحاتٍ من اليابسةِ لصالحِ البحارِ والمحيطات، وتكررَتْ نبوءاتٌ محددة عن غرقِ سواحلِ مصرَ ودلتاها

ليبتلعَها المتوسـط، لكنَّ أحدًا لم يتخيلْ أنْ يحدثَ ذلك بتلك السـرعة، ولـم أتخيلْ أنْ أكـونَ في مركزِ الحـدثِ الرهيبِ وحيـدًا في منتصَفِ الطريـقِ بين جذورِي التي أنبتَتْني وسـمائِي التي أتطلعُ إليها، وتداعتْ حياتـي إلـى ذاكرةٍ لم تجِدْ شـيئًا مرَرْتُ به إلا وكنتُ وحيـدًا، تجاوزْتُ أزماتي وحدي وعشـتُ أفراحي وحدي، غريبًـا في كلِّ محطاتِ الحياة، فلماذا ستكونُ المحطةُ الأخيرةُ مختلفة؟!

t.me/qurssan

- 5 -

أنا علاء توفيق، كنتُ أحسبُني قادرًا على حملِ العالَمِ في قلبي، أضمدُ أوجاعَ البؤساء، وأواسي هشاشةَ الخائفين، وأنبتُ في كلِّ حزنٍ ابتسامةً، لكنني تراجعْتُ بجبنٍ بالغ ولم أزِدْ على أنْ أحلُمَ بعالَمٍ آخَر.

وكنتُ أحسبُني قادرًا على سَرْدِ كلِّ شيء، لكنَّ الموتَ يداهمُني، الموتُ الذي وقفَ في عنفوانه يتفرجُ عليَّ دون أنْ يأتي، حتى أوغلْتُ في ممارسةِ الحياةِ، فجاءَ مخرجًا لسانَهُ ورافعًا إصبعَهُ الوسطى في وجهي، يا موتُ يا بنَ الكلب، اتركني لأكتبَ حكايتي ثم تلاعبْ بي كما تشاء.

مرتْ أيامٌ على الجزيرةِ وأنا أشعرُ أني ملِكٌ متوَّج على أرضٍ وليدة أو نبيٌّ مكرَّمٌ تضافرَت الأقدارُ لنجاتِه، ولا أخفي أنني في تلك الأيام ضبطْتُ نفسي، أحيانًا أومنُ بالله وأتحدثُ إليه، قبل أنْ يحضُرَ الأطفالُ وتَحضُرَ صفية الشرقاوية التي سُمِّيَتْ تيمنًا باسم جدتِها العُمْدة صفية الحوراني، أرسَلَتْها الأقدارُ لي في أولِ أيامي على الجزيرة، تؤنسُ وحشتي وتربتُ على قلبي وتنيرُ روحي بالمحبةِ والسلام، كانت عروسًا جديدة لم يمضِ على زواجِها شهر حين ثارت العاصفةُ وأخذَتْ زوجَها فيمن أخذَتْ، وأحبَّتْني ولم ينجُ من السخريةِ التي تلبَّسَتْني، وأفسدَتْ كلَّ شيءٍ، إلا حبي لها.

أنا علاء توفيق، أديبٌ سابق ونبيٌّ سابق وملِكٌ سابق ومجرمٌ محكومٌ عليه بالإعدام حاليًّا، في وقتٍ ما وضعْتُ كلّ ثِقَلي الشخصيِّ في الأدب، أقرأُ وأشعُر وأتعايشُ وأُرهفُ السمعَ لكلِّ شيءٍ وفي روحي تترددُ كلمةُ مظفر النواب « نصحنا أذنَكَ أنْ تسـمعَ كلَّ الأشياءِ المألوفةِ في الدنيا» وكنتُ أحسنَ مَن يسترقُ السمعَ.

الكتابةُ لُعبتي التي أمارسُـها بحريةٍ لا أملكُها في شـيءٍ آخَر، وحين تمكَّنَ مني شـيطانُ الكتابةِ كنتُ واثقًا أنني سأكتبُ أدبًا يحتفي بالعالم ويحتفي به العالَمُ وتتسـاقطُ عليه الجوائزُ والتقديرُ من كلِّ جهة، لكنْ لم تمهلْني الدنيا وشـهدْتُ نهايةَ عالَم وميلادَ آخَر أكثرَ سـوءًا ووحشية، حصـدتُ جائزةً واحدةً تغنينـي نظرةُ حبٍّ منها عن كلِّ احتفاءٍ وتقدير، وآهٍ يا صفيةَ الحسنِ يا رفيقةَ الروحِ في الدربِ القصير، وكلُّ دربٍ معكِ قصير! لم أملكْ أنْ أحزنَ عليكِ حزنًا يليقُ بكِ ولم أذُقْ إلا حدادًا أعمى يليقُ بي، فلعنةُ اللهِ عليَّ وعلى كلِّ شـيء، وليتَ الطوفانَ الغاشمَ يعودُ ليأخـذَ تلكَ الجزيرةَ ومَن عليها، أبناءُ القحابِ يتمرغونَ في النعمةِ وقد أمِنوا الهلاك بصكٍّ إلهيّ، كلٌّ منهم يحسبُ نفسَهُ نوحًا، والجزيرةَ سفينتَه.

t.me/qurssan

الفصـل الثاني

- 1 -

هــا هو الفتى يلمسُ اليابســةَ بعــد أيامٍ من التأرجُــحِ بين الأمواج، حصــانٌ أتعبَهُ الركــضُ هربًا من المــوت الذي يقضــمُ الأرضَ بخطواته الواســعة، ويطوي البحارَ كطيِّ السجلِّ للكتب، والحصانُ الجميلُ يتآكلُ في الملــحِ المطبِق كأنهُ هو الملحُ في بحيرةٍ ممتدة، العالَمُ هلكَ ونجا هو، يتبدلُ شيءٌ ما في روحه بين سيولة الماء القاسي واستشرافِ الأرض الحنون، بين مطرقةِ الموتِ وسندانِ النجاةِ، شُحِذَ من جديد، تقشَّرَ عن علاء آخَر يُشــبه نعمــة الحصري أكثرَ من أيِّ أحــد، أمهُ التي كانت في ملكــوتٍ آخَر، تمُــرُّ أيامٌ دون كلمةٍ منها، فقــط غمغمةٌ نصفُ مفهومة وإشــاراتٌ معبِّرة، تفعلُ آلافَ الأشــياءِ وعيونُها مطرِقَةٌ إلى الأرض كأنها بينيلوب التي لا تحسِنُ غيرَ إحكامِ النسيج، لكنها تديرُ العالَمَ من حولِها بكفاءةٍ مذهلة.

- جائعٌ يا أمي.

إشــارةٌ من يدِها تجاهَ المطبخِ تكفي ليذهبَ إليه ويكشــفَ الأواني ويغــرفَ لنفســه ما جادتْ به إشــارةُ يدِها المعجزة. يتشــبهُ بها طوالَ حياتِه، يتأنى في كلِّ شــيءٍ كأنَّ الحياةَ بركةٌ يُلَوِّثُ الســيرُ فيها ملابســه الجديدة، وينظرُ إلى كل شــيءٍ من خلالِ عدســةٍ مكبرة، ليســت سوى

t.me/qurssan

أفكاره التي تتخبطُ في عقلِه، لكنَّهُ لم يكن يشــبهُها أكثرَ مما هو الآن، كأنَّ روحَها حطَّتْ فيه!

امتلأَ بســكينةِ الهروبِ من الموت، للهروبِ من الموتِ الوشيكِ طعمُ المعجزة، شــعورٌ غامرٌ بالاصطفاءِ والتفرد، بِسَــمْتِ نبــيٍّ التزمَ الإنصاتَ الخاشــعَ للصمتِ حولــه حتى يلتقطَ قلبُهُ النداءَ الإلهيَّ الكاشــفَ لغايةِ انتشاله من براثنِ الهلاكِ المُحيق، **أنتَ بدايةُ العالَمِ الجديد، بكَ أصوِّبُ انحــرافَ الإنســان، ومنكَ أعيدُ خلقَ الوجود، كنوحٍ بلا ســفينة، وكلُّ ما عليكَ الآنَ أنْ تتأملَ وتستكشــفَ بواطنَ الأشياء، كلُّ ما يحوطكَ جمادٌ، وأنتَ حيٌّ وحيد، فابحثْ عن الحياةِ في الجماد وتواصَلْ معه، حتى ترى ما لا يُرَى وتسمعَ ما لا يُسْمَع.**

الوجودُ مرآةٌ عظيمة لا يرى فيها إلا نفسَــه، مخلوقًا أسطوريًّا يراقبُ الأرضَ بفوقيةٍ وكرامةٍ يســتحقُّها، ومَن غيرهُ وليس على الأرضِ ســواه؟! ينتفــخُ وينتفشُ ظلُّهُ علــى الأيام التي تمُرُّ، يُفْلِتُ قلبُــهُ من يدهِ أحيانًا فيُصابُ بهلَعِ الوحدةِ ووحشــتِها، لكنْ يســترجعُ ما حدثَ برويةٍ يَخلُصُ منها إلى يقينٍ راسخٍ لا ينقُصُهُ سوى ارتعاشةِ الوحي وتَجَلِّي الملاك.

هو الذي عاشَ الحياةَ أنصافًا، نصفُ فلاحٍ ونصفُ مدنيٍّ، نصفُ مؤمنٍ ونصفُ كافر، نصفُ رومانســيٍّ ونصفُ عمليٍّ، أنصافٌ تسكُنُهُ ولم تكُنْ نهايــةُ العالَمِ تلك ســوى فرصةٍ ذهبيةٍ لخلطِ تلــكَ الأنصافِ في عجينةٍ واحدة.

علاء محمود السـيد توفيق، أتى في آخِرِ كلِّ شـيء، ابنٌ وحيدٌ على ثلاثِ بنات للأربعيني محمود أبو توفيق المزارع بالأجرة ونعمة الحصري الوتد والفأس وراعيةُ المواشـي والسـكينة. القرنُ العشرونَ يلفظُ عقدهُ الأخير وهو يتعلمُ المشـيَ متشـبثًا بجلبابِ أخته الكبرى، في الخامسةِ التحـقَ بكُتَّـابٍ يلملمُ تاريخَ الكتاتيب. الشـيخُ محمود العيسـوي كان خطيبًـا ومُـدَرِّسَ ابتدائـي ورَبَّ أسْـرةٍ يطاردُها المرضُ الوراثـيُّ، يُعلِّمُ الأطفالَ يومًا ويتركُ تعليمَهم لزملائِهم القدامى أيامًا، كان أزهريًّا وحيدًا في القريةِ يواجهُ زحفَ الحضانةِ السـلفيةِ والخطباءِ السلفيين ومسجدِ أنصار السـنة الذي صـارَ مَعْلَمًا ومقصِدًا للفلاحيـنَ المحبين للتجديد، هادنَهم واستضافَهم في مسـجدِ الأوقاف واعتمَدَ منهجَهم في الخطابةِ وموضوعاتِهـم أحيانًـا وجلَسَ فـي جانبِ المسـتمعين أحيانًا، لكنهُ لم يخدعْهُـم عن الفارقِ الذي يضعُهُ منهم موضِعَ المنبوذِ إنْ لم يكُنْ عدُوًّا ظاهرَ العداوة. وبعدَ سنةٍ من التحاقه بكُتَّابه لم يَبقَ لدى الشيخِ تلاميذ إلا علاء وابنُ أخته، لم يكُنْ في طاقةِ محمود أبو توفيق أنْ يرسلَ طفلَهُ إلى الحضانةِ الصارمةِ في مصاريفِها، الشـيخُ يقبلُ التسـويفَ والاقتطاعَ من الأجرة، ورطلُ سـمنٍ بلدي أو كيلةُ فول بين حينٍ وآخَر كانت تقومُ مقـامَ المالِ الذي لا يأتي، والكُتَّابُ ظِلٌّ لِلولدِ يخلِّصُهم منه ويمنعُهُ من الشوارعِ التي لايحتملون مطاردَتَهُ بينها.

t.me/qurssan

كان بليدًا. طوالَ السنةِ الأولى يضربُهُ الشيخُ بغِلٍّ مرضه وعجزه، حتى يسقُطَ تحت قدمَيْه فيلتقطا أنفاسَهما. يريدُ أنْ يُصَحِّحَ بالتلميذِ خطأَ الزمنِ الذي دارتْ عليه دائرتُه. يريده واجهةً ينظُرُ الناسُ في مرآته فيرَوْنَ انعكاسَ علمِ الشيخِ وتربيته فيعودون إلى رُشْدِهم ويعيدون أبناءَهم إليه. لكنَّ عقلَ الولدِ كان قفلًا. التحقَ بالمدرسةِ لا يعرفُ الألفَ من كوزِ الذرة، ولا يتقِنُ إلا حفظَ سُوَرِ جزءِ عمَّ عن ظهرِ قلب، لا قراءةً ولا كتابة، حتى أرسَلَ إليهِ شيخُهُ يومًا وهو يُدَرِّسُ الصفَّ الرابع، جلسَ في دكةٍ وقالَ بفخر:

- أسمِعْهم يا شيخ علاء، اقرأ: «والنازعاتِ غرقًا».

وضعَ الولدُ يديهِ على صدره وأغلقَ عينيه كعادتهِ في التسميع، وقرأَ النازعات دون لجلَجة بلسانٍ عربيٍّ مبين. انتفشَ الشيخُ واتسَعَت ابتسامتُه بعرضِ الفصل، وكالَ لهَ المديحَ الذي لم يسمعْهُ يومًا والولدُ ينتظرُ أولَ لقاءٍ لهما بعد المدرسةِ يطحنُ عظامَهُ فيه طحنًا كالعادة، لكنَّ شيئًا فيه تغيَّرَ وتغيَّرَ بسببه ما بينهما حين خرجَ الولدُ إلى فصلِه، في ذلك اليوم أدركَ علاء نفسَهُ ولم تغِبْ عن إدراكه بعدها، أحسَّ أنَّ لهُ وجودًا دامغًا يمكنُ أنْ يُحدِثَ أثرًا في المعادلةِ، ويمكنُ أنْ يُحَرِّكَ الحياةَ كحجرٍ يُلْقَى في الماء، وكلما رأى اثنين يتهامسان حسبَهما يتحدثان عن الولدِ الشاطر في سنة أولى الذي أحرَجَ سنة رابعة وعلَّمَهم كيف يقرءون القرآن، وصارَ ضيفًا دائمًا على الإذاعةِ المدرسية، يقرأُ القرآنَ في البدءِ والختام، شعرَ بقيمةِ نفسه، وأحبَّ المكانةَ التي بلغَها، واجتهدَ ليُعَوِّضَ

ما فاتَهُ من حساب وقراءة، فتَحَ مُخَّهُ ليلتهمَ كتاب: (أخذَ وزنَ)، وجلسَ مـع أخواته يتعلـمُ منهن الجمعَ والطرح، وقرَّبَهُ الشـيخُ في مجالسـه وقدَّمَهُ للإمامة فلم تمضِ السنةُ الابتدائيةُ الأولى إلا وقد صارَ للولد علاء ابن محمود أبو توفيق شأنٌ وصيت.

لكنَّ القربةَ كانت مثقوبة والأيامُ التي تسـقُطُ منها لا تعود، وأنصارُ السـنةِ يعرفونَ من أين تؤكلُ الكتف. وسَّـعوا حضانتَهم وأحضروا ألعابًا ووظَّفُوا مُدَرِّسـات من القرية وصارَ لـ«روضةِ الإيمان»، ما ليسَ للشـيخ محمود العيسوي الذي مَرِضَ كما كان يخاف ولم تفلحْ زياراتُه المتعددةُ لأطباءِ المنصورة ومصر في كَسْـرِ اللعنةِ الوراثية التي اسـتوطَنَتْ دمَه، ومـات بعد عامَيْن مـن العذاب، لم يتركْـهُ الصغيرُ فيهمـا إلا لحضورِ المدرسـة والنوم، وكان ينامُ عندهُ أحيانًا، للموتِ شـأنٌ في الريفِ يرفعُ صاحبَـهُ إلى مرتبةِ الأولياء خاصةً إذا كان المتوفى من أهلِ القرآن، لكنَّ سـحابةَ السـلفيةِ السـوداءَ حرَمَت المرحومَ من إقامةِ عزاء ومرَّ رحيلُه كحديثِ ليلٍ يذوبُ في ضوضاءِ النهار، وخانَهُ الموتُ كما خانتْهُ الحياة.

تركَهُ موتُ المعلم مشـاعًا فتخطَّفَهُ أنصارُ السـنة وراودوا عنهُ أباه، **دروسُ التقوية مجانية ولا يَصِحُّ لمن يوشـكُ على إكمالِ حفظِ القرآنِ أنْ يجهـلَ أصـولَ عقيدةِ أهل السـنةِ والجماعـة، فمثلُهُ يـؤمُّ الناسَ ويفقههُم في شـئون دينِهـم**، أبدى أبوهُ امتعاضًا مـن جَعْلصةِ كلامِهم وحشرِهم للهِ بين كلِّ جملةٍ وأخرى وكلُّهُم ذو تاريخٍ سابقٍ في الصياعةِ والفهلـوة لكنهُ لم يعتـرض اعتراضًا جازمًا فمالَ الصبـيُّ إليهم. علَّموهُ أصولَ العقيدة من توحيد الربوبية والألوهية وتوحيد الأسـماءِ والصفات

t.me/qurssan

ودرَّســوا لهُ صحيح البخاريِّ ومسلم وقرأ عليهم سيرةَ ابن هشام وعيونَ الحكايات والســيوطي والقرطبي وابن تيميــة وابن القيم وابن باز وابن عثيمين، وبكى شيخَهُ الذي ماتَ على علمٍ لم ينفعْه، مات حليقَ اللحيةِ كارهًا للسُّــنَّة على بدعةٍ وجاهلية، ولم يجِدْ لعِشْــرَته صدًى في قلبه إلا حيادًا يتجنبُ الخوضَ في سيرته ويتجاوزُ ذكرهُ مع أحدٍ من أنصار السنة، وصحبَهُم في حلهم وترحالِهم وتنقلاتِهم لحضورِ محاضراتِ شيوخِهم بين البلاد، وبدا أنَّ الحياةَ تسيرُ في اتجاهٍ واحد، حتى التحقَ بالثانويةِ العامة.

- 2 -

الثانوية في بلقاس على بُعد ساعةٍ ونصف تصيرُ في الشتاءِ ساعتين، بسببِ وَحْلِ الطرقات والسيارات البيجو المتهالكة، فسكنَ في المدينة. اجتهدَ في الدراسة وانغمسَ في غربته يعودُ إلى البيت مرتين أو ثلاثًا كل شهر، يرى أهلَهُ ويتزودُ بلوازم المعيشة. حتى سافرَ إلى البلد يومًا فوجدَ الوجوهَ غيرَ الوجوه. ظلالٌ أكثرُ من قدرةِ النور على طبخِها، هي ظلالٌ خبيثة لا تَنْبُتُ إلا في الكتمانِ والهمز. واكتشفَ من نميمةِ الأصحاب أنَّ كبيرَ الدعوةِ السلفية وزينةَ شبابِها قُبِضَ عليه فوقَ امرأةٍ غريبة في بيتِ النحاسين المهجور، وضاقَت الدنيا في عينِ الصبيّ الذي طعنَتْهُ الوحدةُ في قلبه على حينِ غِرَّة، لم يشعرْ أحدٌ به ولم يزِدْ أبوه عن نُصْحه بالالتفاتِ إلى مستقبله ونسيانِ هؤلاء الأفاقين وكلِّ ما علَّموهُ إياه.

كان زلزالًا لم يشعُرْ به سواه. الفلاحون لا يشعرون بالزلازل، يسمعون عنها فيسخرون منها ويتخذونها حطبًا لشايِ المغاربِ وقوالحِها. أمَّا هو فاستقبَلَ الأمرَ كعَارٍ يتحملهُ وحده. لم يستطعِ التخلصَ من خيالِ شيخه المريضِ الممصوص، يرفعُ جفنَهُ بشقِّ النفس، لكنه لا يترُكُ صلاةً ولا يُفَوِّتُ

t.me/qurssan

فرصةً لتقويمِ تلميذه الوحيد وتعليمه حســنَ الخُلُقِ وحبَّ الحياة، الخيانةُ والدونية أثقلا قلبَ الصبيّ فغَامَ كلُّ شــيءٍ داخله وفقدَ توازُنه بينما العالَمُ يهرولُ حولَهُ كأنَّ شــيئًا لم يَكُن، المواشــي تملأُ الدنيــا ضجيجًا قبلَ طلوعِ الشمس، ولابســو الجلابيب يتمخطون ويسيرون ويضربون الأرضَ بنعالهم حتى تغيبَ الشــمسُ فيعودونَ في مواكبِهم الكئيبة المتســخة. لم يحتملْ عاره فوقَعَ أسيرَ الحمى أيامًا كادت تودي به لولا تمريضُ أمه وأخواته.

جرَتْ عادةُ المرضِ أنْ يفتحَ لذوي البصيرةِ ما أغلَقَتْهُ الحياةُ من كوى تُطِلُّ على شفافيةِ الروح، واستسلمَ علاء لمرضه متواطئًا مع الحمى رغبةً منه في استكناهِ اللُّبِّ وعبورِ الحاجزِ الصلبِ لكنه كان يضربُ رأسَهُ في خرسانةٍ مسلحة لم ينَلْ منها إلا دوارًا وألمًا لا يتوقف، فأفاقَ من مرضه مرغمًا، شــاعرًا بالخــواء وجائعًا إلى معرفةٍ جديدة، لــم يكن ما يتكتلُ داخلَهُ قادرًا على إذابةِ حزنه فســافرَ إلى دراســته لكنَّ قلبَهُ يسبقُه إلى مكتبةِ المدرســة، لأولِ مرةٍ تعرفَ على الذين منعَهُ الورعُ القديمُ عنهم. ارتمى في أحضان طه حســين الذي كان بالأمسِ زنديقًا أعمى رزقَهُ اللهُ عمى البصر والبصيــرة فادَّعَى قدرتَهُ على تعديلِ أخطاءِ القرآن، فوجدهُ طفــلًا خفيفَ الظــلِّ يشــبهُ طفولتَهُ في أيامــه ويبهــرهُ بعذوبةِ نقده وصراحتــه ويهزهُ بمعذبيه في الأرض وأدبيه ويُعجزه بمقالاته وأســلوبه الجــزل، وعــرفَ عبرات المنفلوطــي ونظراته وفضيلته وتاجه وشــاعره

والرافعي بمساكينه ووحيٍ قلَمه وسحابه الأحمر، وتنقلَ كطيرٍ يقعُ على الحَـبِّ بين نجيب محفوظ ويحيـى حقي ومحمد عبد الحليم عبد الله ويوسـف إدريس وخيري شـلبي وزكـي نجيب محمود وإحسـان عبد القدوس ويوسـف السـباعي ثم شكسـبير وديكنز وإميل زولا وفيكتور هوجو وعبد التواب يوسـف ويعقوب ويوسـف الشاروني وانفتحَ عالَمٌ آخَـر انغمـسَ فيه، لم يَكُنْ أحدٌ يقرأُ بإتقانه وسـرعته، ولم يمضِ وقتٌ طويـلٌ قبـلَ أنْ يدرِكَ موقِعَهُ من العالَم، حصلَ على تسـعة وسـبعين بالمائة، خابَ أملُهم جميعًا إلا هو، آداب جامعة القاهرة إذن.

علـى هامشِ كلِّ ذلك وربمـا في قلبه تمامًا نبَتَـتْ مريم، بنتُ بلده الجميلةُ التي زاملَتْه طوالَ الدراسـةِ حتى انتبهَتْ له وانتبهَ لها، ثم انشـقَّ بينهمـا حبٌّ صامتٌ ومشـاعرُ مكبوتة حتى انفكَّ قيدُ السـلفية وانحلَّتْ عقدةُ لسانه.

قال لها:

- أحبكِ..

وانصرفَ قبلَ أنْ تَرُد. ولم ترُد، فقطْ أومأتْ عيونُها، ورافقَتْهُ عيونُها كلما التقيـا في صمـتٍ وآنسَـتْهُ كلما ابتعدا فـي محبة، ولم يتكلمـا إلا بعدَ التحاقِهمـا بجامعـةٍ واحدة، التَحَقَـتْ بكلية العُلومِ وانتظـرا أولَ يومٍ في الدراسـةِ ليتمكنَا من الجلوسِ معًا غريبَيْن يتذوقان الحُبَّ الذي سـكنهما

t.me/qurssan

دون أنْ يعرفا طعمَهُ إلا الآن. كانت أعقلَ منه وأكثرَ استقرارًا وتصالُحًا مع العالَم فمنحَتْهُ حبَّها ولمساتها الرقيقة فلم يطمعْ في شيءٍ سوى أنْ يدومَ اللقاءُ ويطول.

لــم يبخلْ أبوهُ بشــيءٍ لكنَّ اليدَ مهما اشــتدتْ قصيــرة ومصاريفُ الجامعةِ ليســتْ هينة، فعملَ جرســونًا ومندوب مبيعــات وعتالًا وكلما خســرَ وظيفةً فقدَ ثقتَهُ في نفســه وانهارَ أحدُ الأعمدةِ التي يقومُ عليها كيانُه، لهثَ خلفَ الناسِ يتشــممُ فرصةً للعملِ هنا أو هناك، في البدايةِ أســقطَ كلَّ ظروفه على الســماء وبحثَ عن رَبٍّ يحملُ عنه عبءَ لقمةِ العيــشِ ويقيه توحُّــشَ الغربة فلم يجدْ ما يريدُ بالضبــط، بدأتْ ثورتُه الداخلية تنمو شــيئًا فشيئا، كلُّ ما خبَّأهُ داخله وطمَرهُ في رمادِ الدراسةِ والعمــل طفــا واندلَع. لم ينسَ الخديعةَ الســلفيةَ القديمة وتســاؤلاته المشــتبِكة عن العدالةِ والتاريخِ والأساطير، وأحرَقَهُ انضغاطُه تحتَ نيرِ العمل المتواصل ومحاولةِ توفيقه مع الدراسة والقراءة والندواتِ الأدبية. ثورتُه الوليدةُ لم تكن موجَّهَةً إلى اللهِ بشكلٍ خاص، مهما يكُنْ لديكَ من تمرُّدٍ وشــكوك فإنَّ الســماءَ تتخذُ داخلَكَ ســمتًا أبويًّــا يُصَعِّبُ الخبطَ المباشــرَ فيها، ويلتفُّ ذهنُكَ حولَ الأمورِ بحيلةٍ نفســيةٍ فيؤوِّلُ شكوكَكَ ويحيلُهــا إلى اعتراضاتٍ على ســوءِ الفهمِ وتحجُّرِ الفكــرِ ونقدٍ لأمراضِ المجتمــع التي ترتدي عباءةَ الدين، لكنّ لحظةَ ضيقِ يدٍ واحتياجٍ عاصر تُخــرِجُ كلَّ تنظيمِكَ الدقيقِ عن طَوْره إلى حقيقةِ فوضاهُ وعنفوانه ثورةً في وجهِ الإله الغائب وخطته العشــوائيةِ لعالَــمٍ يتهاوى ومليارات من البشــر تنكفئُ على غيرِ هدى، والجوعُ كافــرٌ رغم عجزه عن المجاهرةِ

بكفــره. احتكَّ بالهم العامِّ مرةً حين اســتضافَتْهُ ثــورة يناير 2011 بضعَ مراتٍ لم تسمحْ ظروفُه بأكثرَ منها. في أولِ أيامِها منحَتْهُ ومنَحَتْ مِصْرَ كلَّها أملًا في تغييرِ الواقعِ بكلِّ سواده لكنها كانت نسمةً رقيقة لم تملِكْ لونًا بديلًا ولم تتحدثْ إلا عن قوسِ قُزَح واستعارةِ ألوانه الخيالية لصُنْعِ عالَمٍ أجمَل فماتت الثورةُ بالتسممِ البطيء. وعادَ هو إلى نفسه بسرعة واضعًا قاعدةً وحيدة لكلِّ شــيء، مهما كانت المغرياتُ فلا تنشغلْ عن مسارِكَ الأساســيّ ومهما كانت المتاعبُ فلا تنهزم، لأنَّكَ ستعاني وحيدًا إذا وقعْتَ، وإذا وصلْتَ فســيكونُ ذلك بفضلِكَ وحدَكَ ولأجلِكَ وحدَك، كان الجميعُ ينشغلونَ بإظهارِ رؤاهم وأفكارِهم ليمارسوا التنظيرَ وينالوا الشهرةَ والحظوة، وهو يحفرُ بأظافره ليأكُلَ بجانبِ دراسته ويقرأُ ليبنيَ نفسه وعقله في صمتٍ وصبر، حَيَّدَ عاطفته حتى لا تشتتَهُ عن مساره، كان العملُ هو الوســيلةَ الوحيدةَ للبقــاء، فعملَ بالقدرِ الذي يحفظُ له حياته ويكفيه ذلَّ الســؤال أو معانــاةَ الحاجة في غربةِ القاهرة، اجتهدَ فــي الدراســةِ بالقدر الذي يمنحُه الليســانس دون قلقٍ يفسِــدُ حياته، وامتصَّ الكتابةَ برويةٍ وأناة، يبحثُ عن كلِّ فرصةٍ ليتعلمَ ويتابع أوساطَها وعالَمها دون أنْ ينســاقَ وراء بريقِها الخادع، وفي وســطِ كلِّ هذا فقدَ علاقتَهُ بالسماء وبالحب وبالأحلام، لا يبحثُ عن أيٍّ منها ولا يبتعدُ عنها، كأنها غيرُ موجودةٍ تمامًا، ولم يشعرْ يومًا بنقص ولم يجدْ وقتًا يشعرُ فيه بشــيءٍ غيرِ الشغفِ بما يفعل، الشغفُ بالحياةِ ذاتِها بأنفاسِها وشكوكِها وآلامِها، وكان الشغفُ هو سرَّ صموده فتمسَّكَ به وأخلَصَ له، حتى فقدَ مريمَ وأهلَهُ ووقعَ بين براثنِ الطوفان ليدخُلَ في التجربة.

t.me/qurssan

- 3 -

سـماءُ الجزيرةِ مختنقةٌ بسـحبٍ كطبقاتِ الدخـان، ورياحٌ تعصفُ بالسـاكنِ وتحقنُ برودتَها في العظام، ونهاراتٌ كالليل وليلٌ بلا شـاطئ، أهداهُ طرحُ البحرِ ملابسَ وأخشابًا وصناديقَ وسياراتٍ مغموسةً بالموت وأطعمـةً متبَّلَـةً برائحةِ الذين لم يسـتطيعوا النجاة، آثـارُ الحياةِ التي ابتلعَها الموجُ ترسـو حولَ الجزيرةِ فتؤنسُـهُ وترعبُه، يقضي أيامًا يتجولُ بينها ويبحثُ فيها عمَّا ينفعُه فيبكي أهلَهُ وذكرياته وأحلامَه، ينقضُّ عليْه الصمـتُ وتتلاعبُ بـه الهواجس، نبيٌّ بلا أنيسٍ لا بـد تأكلُه الهواجس، يصحو من نومٍ متقطعٍ كالمحموم يتحسـسُ رأسه وجلده ويركُضُ بطولِ الجزيرةِ وعرضِها يزعقُ حتى يُبَحَّ صوته؛ ينادي اللهَ والملائكةَ والأشـباح، يشـعلُ نارًا فوقَ جبالِ الليلِ لتؤنسَـهُ أو تهدي الناجيـن، يناجي البحرَ ويلعنُه ثم يداهنُه، يتملقُ ويوبخُ آلهةَ العالَمِ وشـياطينَه، يسـتلقي في كهـفِ النوم بعـدَ قدومِ الليـلِ بليلٍ ويصحـو مفزوعًا يتعـرقُ وينهنهُ كالأطفال قبل رحيلِ الليلِ بليل، وحيدًا منفيًّا.

أفلتَهُ الموتُ وانتشـلَتْهُ اليابسـةُ من الغرقِ ليحاصـرهُ الموجُ ـ كما يحصُرُها ـ من كل مكان، الموتُ الذي كان أقربَ إليه من جلده حتى إنَّ روحَهُ أمِنَتْ له وأوشـكَتْ مرةً أنْ تستسـلمَ لشـبحه الحائمِ فوقَ الماء، كادت تغادرُ جسده كأنها خارجةٌ للتريُّضِ، في مرحلةٍ ما من صراعِ البقاء

يكــونُ العــدوُّ الوحيدُ للحياةِ هو الشــكُّ في القدرةِ على الاســتمرار أو جدواه، ســكَنَ إلى البحرِ كترعةِ طفولتــه البعيدة وتماهَى مع العاصفةِ كمخلــوقٍ بحريّ، نَسِــيَ في عنفــوان الطوفان أنْ يحتــرسَ وأمِنَ للبحرِ الهائجِ ولولا غريــزةُ البقاءِ لكانَ في عدادِ الغارقين، انتبَهَ لرائحةِ الموتِ فجأةً فقاوَمَ وشــحذَ تركيزه، عرفَ حينها أنَّ الموتَ لا يُصاحَبُ ولا يؤمَنُ جانبُه، حين يُرَى لا مفرَّ ســوى الاختباء، وكان يجيده فيختبئُ ويتلاشــى ويــراوغُ عملاقَ الموجِ بألفِ طريقة، صادَقَ قــدَره والطبيعةَ حتى آوَتْهُ الرحلــةُ إلــى جزيــرةٍ لا رفيقَ فيهــا إلا الذكريــاتُ التي تمضــغُ القلبَ والهواجــسُ التي تنهشُ العقل. بين رحلةِ الهــروبِ وتحقُّقِ النجاةِ خلعَ عــلاء توفيق جلدهُ وارتــدى آخَر أكثرَ شــفافيةً وانفتاحًا على المجهول. الســماءُ التي كانت هامشًــا بعيدًا وخرافيًّا صارَتْ متنًا، لها ركنٌ في قلبه وعقلــه يلتمسُ لها الأعذارَ ويصلي لها برقــةٍ ووداعة ويغني لها مقاطعَ وترانيــم. والحزنُ الذي كان يفرُّ منه ويزدريــه ارتمى في حضنه الناعم وتعهَّدهُ بالذكرياتِ والندمِ والدموع.

اعتبر نفسَــهُ على أعتابِ النبوةِ والكشــف، وعاد الطفلَ الذي فرِحَ بحفــظِ القرآن يرددُ ما يتذكرُ منه ويذوقُ حــلاوةَ الصدى المنبعِثِ من الآيات كأنهُ حديثُ عهدٍ بها يتلوها لأولِ مرة، ومن الغرابةِ أنَّ الفتى الذي ظنَّ نفسَهُ قد اصطدَمَ بهذه الكلماتِ وفنَّدَ قدسيتَها ونسبتَها إلى السماء لم يعُدْ يجدُ في نفســه إلا صوفيةً تؤوِّلُ جمالَها وتستعذبُه. اكتشَفَ أنَّ شــخصيتَهُ التي اعتبرَها دائمًا خليطًا مشــتبِكًا لا يقبلُ الانفصال وأنَّ كلَّ قناعةٍ كان يحسبُها تستبدلُ غيرَها وكلَّ شكٍّ يمسحُ يقينًا مخالِفًا لحيثيته

t.me/qurssan

لــم يكُنْ كلُّ ذلكَ ســوى خديعةٍ مارسَــها عقلُهُ ليتجنــبَ تناقُضًا مُربِكًا ومعركةً مع ذاتٍ لم تكُنْ تحتملُ التشظي والانقسام فكوَّنَ من كلِّ قناعةٍ جديدةٍ وكلِّ شَــكٍّ منطقيّ طبقةً تُخفي تحتَها نقيضَها تمامًا وتضعُهُ في حالةِ كُمونٍ تنتصرُ لسلامٍ داخليٍّ لم يكُنْ منهُ بُدّ، ولم يتطلب الأمرُ أكثرَ من مجردِ كارثةٍ بشريةٍ ضخمة لتنجلي تلك الطبقاتُ وتذهبَ في مهبِّ العاصفــة. ليبقى علاء بن محمود توفيق ونعمة الحصري الذي أضحكَتْهُ الأيامُ وأبكَتْهُ وسرقَتْ منه وسرقَتْهُ لكنها لم تأخُذْ منهُ وقفتَهُ على شاطئ بحرِ النيل يتأملُ الضفةَ الأخرى ويُقسِــمُ أنَّ في استطاعته يومًا أنْ يقفزَ إليها دون عصا موسى ولا سفينةِ الخضر.

سافرَ إلى البلد لأنَّ مكالماته ورسائلَهُ لم تَكفِ لتقتنعَ حبيبةُ الطفولةِ والصِّبــا أنَّ الطفولــةَ والصبا يضيقــان بنا كما تضيقُ الملابــسُ التي كنا نرتديها لهما تمامًا، عاد ليضعَ نقاطَ حياته على حروفِها بشجاعةٍ وغلظة.

وجــاءتْ مريَم بحجةِ زيــارةِ أخته والتقيا في تغافُــلٍ من أمه وأبيه، لم يعرفْهــا قلبُــه حين رآها. ليســت حبيبتَــهُ التي كان يهتــزُّ حين تلتقي عيونُهمــا. غريبــان كل الاغتراب، ابتســامتُها الهادئةُ المتوتــرة تراوغُ ، وصبرُها الحادُّ ينغرزُ في لُغَته القاسية فتَلِين أو تُراوغ، لم تكن المعركةُ فــي مخيلتــه بتلك الصعوبة. لم يظنّ أنها ستتمســكُ به إلى هذا الحد، المعاركُ المتكافئةُ أكثرُ ســهولة. كيف تحاربُ أحدًا يريدُكَ؟ كيف تأتيكَ جرأةُ قتله وهو يسعى إلى إنقاذِكَ بمثاليةٍ خانقة؟

هو يقطعُ وهي تَصِل فلم يتفقا، هي مستعدةٌ لانتظارِ الفتى الذي أحبَّتْهُ إلى آخرِ العُمر. وليس الفتى الذي أحبته سوى خيالٍ تفنَّنَتْ سنواتُ الجامعةِ في محوه وتشويهه. لا يريدُ أنْ يصدمَها بأنَّ حياته التي اختارها لا مكانَ فيها لِحُبٍّ ولا ماضٍ ولا أيِّ شيءٍ سوى الحريةِ والكتابةِ وأصدقاءِ الباراتِ والندوات. وجودُها كان الجِذْر، الرابطَ الوحيدَ بينه وبين كلِّ ما وراءه، فلم يبقَ إلا هي وأهلُه ، وأهلُهُ يفعلون ما يفعلونه طوال عمرهم دون أنْ يرفعوا رءوسَهم، ربما لا ينتبهون حتى أنه تخرَّجَ من الجامعة، حاولَ مرارًا أنْ يهدمَ عالمَها الرومانسيَّ لتفيق، أنْ يصرخَ فيها: « أنتِ لا تكفينني، لستُ علاءَ أحلامِك، ذقتُ سواكِ ولم أعُدْ لكِ». لكنْ كان يترفقُ بها ويتعذرُ بالظروفِ والدنيا التي تتغيرُ وسِنِّها التي تجري وتكبَرُ في الريف أضعافَ ما قد تحتملُ من ضغوط، وهي لا ترى فيه إلا فارسَ الحلمِ الأول الذي تتشبثُ به كأنهُ كلُّ ما يعنيه العالَم. انفثأتْ بينهما فجوةٌ لم تدركْها وانتهت الجامعةُ لتتسعَ الفجوة باتساعِ العالَم. عادت إلى القريةِ مُدرِّسَة ابتدائي وإعدادي خاضعةً لكلِّ القيودِ الاجتماعية الممكنة وارتمى هو في المدينةِ بروحه قبلَ جسده، استقرَّ نظامُ حياته وعمله وتشكلَ الإطارُ الدائمُ لمستقبله في الأدب والصحافة. وكان من شروطِ رسوخِ عالَمه أنْ ينفصلَ عن عالَمِها بسرعةٍ وحسمٍ شديدَيْن. الحريةُ كانت هوَسه، ومَنْ يمكنُهُ التحليقُ وأجنحتُهُ مقيدةٌ إلى وتدٍ موغلٍ في الأرضِ والزمن؟!

t.me/qurssan

نحــن لا نختــارُ معاركَنا يا مريــمُ وربما لا نختارُ شــيئًا على الإطلاق، سذاجةُ السؤالِ القديمِ عن تسييرِ الإنسان وتخييره تنضحُ بالعجزِ والفصام ولم يعُدْ لي طاقةٌ على الاستســلامِ للعجزِ الناشــبِ في كلّ شيء. معاركُنا غيــرُ متكافئــة مــع الزمن والمــوت والله نفسِــه، وســلاحُنا الوحيدُ هو المراوغــة، مرونــةُ الهروبِ من كلِّ القيود حتى يأســرَنا قيدٌ لا نســتطيعُ الفكاكَ منه، ولستِ قيدي الذي يمكنني التضحيةُ من أجلِه، فاتركيني حرًّا حتــى أنكفئَ على وجهي فــي الهوةِ المقدورةِ لي، دعيني أقتلُ نفســي بالسم الذي اخترتُه لا بالسم الذي اختارهُ لي الجلاد..

- 4 -

كان جبل أبي ماضي قبلَ الطوفان شاسعًا يحاذي الساحلَ من آخِر منطقةٍ في دمياط إلى قربِ حدود كفر الشيخ ، لم يكن جبلًا بريًّا. خضعَ للاستصلاحِ ونبتَ في رماله الخضَرُ والفاكهة واستوطنَهُ الشهابيةُ والفلاحون في أكثرِ مناطقِه، لكنْ لم يبقَ بعدَ انحسارِ الماء إلا رمالٌ ميتة وهياكلُ نخلٍ جرَفَ الطوفانُ بعضَها وأكلَتِ الرطوبةُ جذورَ البعض وأحاطَهُ الماءُ من كلِّ مكان.

ولم يدُرْ بخلَدِ الذين استقرَّتْ جثامينُهم وعالَمُهم ورؤاهم في قاع البحرِ الآن أنَّ الجبلَ المهيبَ سيصبِحُ جزيرةً صغيرةً مذعورة تقعي في أحضانِ المالِح. لكنَّ الحقيقةَ حادةٌ كالسكين والذي كان بالأمسِ خيالًا نزِقًا صارَ اليومَ واقعًا يضربُ بجذوره في الوجودِ الذي لم يعُدْ يضُمُّ إلا صدى الخرابِ وظلالَ الفراغ.

وقضى الفتى شهرًا وبضعَ ليالٍ يُحَدِّثُ نفسَهُ وأشباحَها. يتنقلُ بين جنباتِ الجزيرةِ بحثًا عن السَّكِينَة ويتطلعُ إلى البحرِ بحثًا عن ونس، ينظمُ كهفَهُ ويضعُ به ما يضفي حياةً تكتمُ صدى الوحدة والصراخ ويتعهدُ أشجارًا غريبة استنبتَها المطرُ على جوانبِ بركةٍ كبيرةٍ من الماءِ العذبِ في منحدَرٍ من منحدَرات الجبل، يطلُّ عليها بين يومٍ وآخَر ليشغلَ

t.me/qurssan

نفسَهُ برعايتِها وتشذيبِها وريِّها ولا يكُفُّ عن الكلام إلى ما لا يُرى، ويحفرُ قنواتٍ تصلُ بين البركةِ والكهف والأشجار.

تنظُرُ إليه من بعيدٍ فترى جسدًا ناحلًا سريعَ الحركة غارقًا في ملابسَ مهلهلة، يعتمرُ قبعةً من الصوف تغطي وجهًا غائرَ العينين تتحركُ شفتاهُ فوقَ لحيةٍ شعثاء وخَطَها الشيب، ويتوقفُ بين حينٍ وآخَر أيًّا كان ما يفعلُه ليلقي نظرةً تستشرفُ البعيد وتستكشفه.

ولأنَّ الوقتَ عدوٌّ واسعُ الحيلة لا يُهزم، والوحدةَ رفيقٌ قاسٍ لا يَرحم، فقد ألقى على عقلِ الفتى مسحةَ جنونٍ، وألقَتْ في روعه مسحةَ يأسٍ سممَتْ إيمانَهُ الوليد. لم يلقَ شيطانًا يوسوسُ إليه ولم يدخلْ في معركةٍ تختبرُ صلابتَهُ وإيمانَه، تُرِكَ لنفسه فقط فتآكلَ يقينُه، والنبوةُ التي أنبَتَتْها النجاةُ في قلبه هشَّمَتها الوحدةُ والانتظار. أو ربما يبدو كذلك.

كنتَ تراهُ في أولِ قدومه إلى الجزيرةِ مبتسمًا وهادئًا. كلما هبَّتْ ريحٌ عاصف وقفَ في وجهِها بثباتٍ واستهتار، وكلما هاجت السماءُ وجُنَّ جنونُها يتطلعُ إليها بثباتٍ، كأنَّ بها أبًا أو صديقًا يركنُ إليه ويثقُ أنهُ لن يؤذيَه. لكنهُ الآنَ بعيدُ العهدِ بالنجاةِ كأنها من سنين بعيدةٍ لا يذكرُها. يخافُ صريرَ الرياحِ وقرقعةَ البحر وحفيفَ الليل والأشجار، وينامُ منكمشًا على نفسه كجنين، نومًا متقطعًا يعجُّ بالكوابيس وصُوَرِ الجثثِ المنتفخةِ والوجوهِ المتآكلة.

ربما لو أعطاهُ الجنونُ فسحةً للتأمل لوضعَ إيمانَهُ المضطربَ موضعَ جدَلٍ منهجيٍّ، يَخْلُصُ منهُ إلى حقيقةٍ أو حكمةٍ تُعَقْلِنُ إخفاقَهُ في الموتِ، أو إخفاقَ الموتِ في النيلِ منه. لكنَّ العقلَ يظلُّ تلميذًا محدودًا

للعالَم يفهمُ شـيئًا وتفوتُه أشـياء، فيلجـأَ إلى حيلةِ التديُّـن، يفتحُ بها مغاليـقَ المجهول، ويطـرُقُ عوالِم الميتافيزيقا؛ بحثًـا عن يقينٍ صلب، وتفسـيرٍ مقبول. كانت نبوةُ الفتى طريقتَـهُ في العرفان لمجهولٍ منحَهُ فرصةً في وقتٍ تؤخذُ فيه الفُرَص. فكيفَ يبقى حين يتهدمُ العالَمُ إلا إذا كان لبقائه أهمية وللسـماءِ خطةٌ بعد أنِ اتهمَها كثيرًا بغيابِ الخطةِ بل رماهـا بغيابِ الكينونة. لكنَّ الصمتَ الكافـرَ من حوله بعدميته الهائلة تمكنَ منه وأعادهُ إلى مربعِ السخطِ الذي طالما وقفَ فيه. وطُلِيَتْ رُوحُ الفتى بطبقةٍ أكثرَ سُـمْكًا ولزوجة، فتحَتْ له أبوابَ الجنون، وأيُّ شـيءٍ يُشْـعِلُ الجنونَ كالوحدة؟! وأيُّ شـيءٍ يطفئُ الوحدةَ ونيرانُها تندلعُ من القلبِ وفيه؟

سافَرَ ليقطَعَ وشائجَ الحبِّ الذي ظنَّهُ قيدًا يجعلُهُ أرقَّ وأثقَل. صراعُهُ مـع الوقتِ لا يحتملُ رقـةً ولا ثقلا. تحمَّلَ حياتَهُ كما رسـمَتْها الأقدارُ، فربما كان في حاجةٍ إلى انتصارٍ صغيرٍ على تلك الأقدار ولو كان انتصارًا نـذلًا، أنهى مُهِمَّتهُ بنجاحٍ وتخلصَ من مريـم وقررَ العودةَ إلى القاهرة بسـرعة، أمـا مريم فإنهـا وصلَتْ إلى طريقٍ مسـدود، لم تسـتطعْ أنْ تستميلَ قلبَه، كان يحدثُها بعقله فقط، نبَشَتْ داخلَهُ بكلِّ طاقتِها، لكنها لـم تجِدْ قلبًـا تتفاهمُ معه، حينها يئِسَـتْ وأعطتْهُ صـكَّ البراءةِ الذي يبحثُ عنه.

لم يتوقفْ أمامَ ما حدث، وكان يرى الجميعَ شـركاءَ فيه؛ الله وأبوه وأمه وأخواته ومريم وأهل البلد وأنصار السنة والقاهرة والحُلم والثورة والتاريخ والإخوان ووائل غنيم ومبارك ومرسـي والسيسـي، ليس وحده

t.me/qurssan

مسـئولًا عما وصلَ إليه من قناعةٍ قاتلة بأنَّ الحياةَ لا تُعطي كلَّ شـيء. وبأنَّ المسـيرةَ لا بُدَّ لاكتمالِها من وحدةٍ وقسـوة وأنانية. الحياةُ علمتْهُ ذلـك وبالطريقةِ الصعبة. لـم ينتظرْ ليودعَ أحدًا ولم يحملْ إلا الموبايل وفراغًـا هائلًا، لكنه خفيف ينتفخُ داخلَهُ كبالون يحملُهُ إلى الحريةِ التي ينشُـدُها، تلك الحريةُ التي تمتصُّهُ الآنَ بوحدتِها الشاسـعة كمغناطيسٍ متوحـش يموتُ في انجذابه إليه كلَّ لحظةٍ ألفَ موت. حين هربَ علاء من مريم ومن البلد كان فاتحًا ذراعَيْه لعالَمٍ غيرِ الذي عاشـه وقاسـاه، مُحَلِّقًـا في فضـاءِ الولادةِ الجديدة لكنَّ الأقـدارَ كان لها رأيٌ آخَر، على مشـارفِ المنصورةِ توحشَ طقسُ ديسمبر واشتدَّ المطرُ والرياح، غامَتِ الرؤيـةُ مع رعدٍ وبـرقٍ يتناوبان على السـماء ويخلعـان القلوب. كان الضبابُ سـريعًا وثقيلًا كأنَّ الشـمسَ كانـت فرنًا مشـتعلًا بلَّلَهُ المطرُ واكتسى الكونُ بالدخان. تكدَّستِ السياراتُ فلم يملكْ سائقُ الميكروباص الحانقُ سـوى الوقـوفِ على جانبِ الطريق ونزلَ ليـرى نهايةَ التكدُّس، أمطرَتِ السـماءُ ثلجًا. ليس غريبًا في الشـريطِ السـاحليِّ للمتوسط أنْ تتساقطَ الثلوجُ في ديسمبر. لكنَّ شيئًا ثقيلًا قبضَ على صدرِ علاء، ربما هو الشـعورُ بالذنبِ واستحقاقِ العقاب نابعًا من بقايا ضميره، إنْ بقِيَ فيه ضمير.

خرَجَ من السـيارةِ ليستكشـفَ ما يحجبُهُ الضباب، لـم يعبأ بالماءِ المنهمر، لكنْ لسـعَتْهُ حباتُ ثلجٍ في قفاهُ، فرفعَ غطاءَ الرأسِ من ظهرِ الجاكـت وابتعدَ عن السـيارةِ باحثًـا عن نقطةٍ تسـمحُ بالرؤية، صوتُ ارتطـامٍ هائلٍ خلعَهُ من مكانِه، الميكروباصُ الذي كان يركبُه منسـحقٌ

تحت عجلاتِ سـيارة نقـلٍ ما زالت تزحفُ وتقتربُ منـه قبلَ أنْ يلقي بنفسه في أرضٍ زراعيةٍ تجاورُ الطريق.

الصدمةُ والهلع يقتسـمان دمه وأعصابَه، إحساسُ النجاةِ من الموتِ بطيء، لا يستوعبُ المخُّ ما يحدثُ إلا بعد أنْ يكونَ الخوفُ من الموتِ قد اخترقَ الروحَ والجسد وأطلقَ الأدرينالين يُضَخِّمُ كلَّ شيء، كان يمكنُ أنْ يُدهَـسَ منذُ لحظاتٍ لولا انقباضةُ صـدره الغامضة أو رائحةُ الموت الوشيك حين تشممَتْها رُوحُه، اعتدلَ مُلَطَّخًا بالطين الذي يحاصرهُ الثلجُ والسـماءُ تَصُبُّ الأمطارَ صبًّا، تداخَلَ صوتُ الارتطامات وعلا الصراخُ من كل الجهـات، الناسُ يهرولونَ مرعوبين ويتجمعـون في أكثرِ من مكانٍ ليُخرِجوا أحدًا من سـيارةٍ مدهوسةٍ أو مقلوبة وهو مشلولٌ مَغروسٌ في رعبه كفريسةٍ أحاطَتها الأنيابُ لا يعرفُ ماذا عليه أو يمكنُهُ أنْ يفعل.

في الخلاءِ الزراعيِّ حولَ الطريق وعلى مدى الرؤيةِ كان الناسُ يفرُّون تجـاهَ الكوبري العلويِّ وأكواخِ الفلاحين القائمـةِ في الأراضي يَحتَمُون تحتهـا، ركضَ بحذائه الجلديِّ الموحل ليسـتظلَّ بالخرسـانةِ المسـلَّحة للكوبـري، اللغطُ المختلطُ بالآهاتِ والبكاء يتصاعدُ وهو ينسـحبُ إلى صمتٍ داخليٍّ يرتفعُ تأثيره كخلفيةٍ موسـيقيةٍ على هامشِ المأسـاة أو لعلـهُ في مركزِها تمامًا، لكنَّ اختلافَ المقاييسِ بين الداخلي والخارجي يُضفي على شـروده الذي هو اسـتغراقٌ في الداخليِّ ـ بُعدًا ومسـافةً تفصلُ حواسَّهُ عن شيءٍ هائلٍ كالذي يحدثُ له وحولَه، كان يرى الوجودَ أو الحياةَ كائنًا لطيفًا يحملُ السماءَ على ظهرٍ مُتعبٍ وأربع قوائم، وكلما تحرَّرَ منها اعتدلَ ظهرهُ قليلًا حتى انتصَبَ قائمًا، وبدا ذلك الوجودُ الآنَ

t.me/qurssan

هائجًا يفقدُ عقلَهُ تدريجيًّا ويطيحُ بكلِّ شيءٍ على طولِ الرياح، ثم جلسَ في رُكْنٍ منكمشٍ يرتعشُ من الوحدةِ والخوف. كان ما يحدثُ بسيطًا وواضحًا في تلك البقعةِ التي استوطنَتْها الحكاية. العالَمُ يستعيدُ السيطرة، يتوحشُ وتنبُتُ له مخالبُ وأنياب تمزقُ الإنسان، الذي يتضاءلُ بحضارته وحركتِه، ووعيه ومشاعره، وخيره وشره، وعلاقته الفريدةِ بالطبيعةِ والإله، وينكمشُ على نفسه كطفلٍ خائف يتطلعُ إلى الأفقِ الغائمِ والرذاذِ الثلجيِّ، يتحسسُ بحدْسِهِ المتوترِ ما وراءَ العاصفة من عقابٍ لم يعملْ لهُ حسابًا، وكان ضئيلًا جدًّا ذلك الإنسانُ أضأَلَ من حبةِ سُكَّرٍ في صهريجِ ماء.

ربما توقَّعَ نهايةً أكثرَ دراماتيكيةً للعالَم فاطمأنَّ أنَّ القيامةَ لا تزالُ على مسافةٍ أبعدَ، لكنَّ أبسطَ السيناريوهات التي طرحَتها العاصفةُ على عقله كان مرعبًا، بالتأكيد نصفُ قيامةٍ أسوأُ بكثيرٍ من قيامةٍ كاملة. استطاع أنْ يقرأ رسالةً ما من مكمنه الهش تحت كوبري شرنقاش العلوي على الطريقِ السريع بين جمصة والمنصورة، رأى الأرضَ ـ التي انحنَتْ ولانتْ لتمنحَ الإنسانَ ظهرَها واتساعَها يزرعُ ويقلعُ ويبني ويهدم ـ تُضَيِّقُ وتَضِيقُ عليه حتى لا تكفي موضعَ قدمَيْه، و«لا تكفي» كلمةٌ مرعِبة حين يتحولُ معناها إلى غيابِ المهرب بما يحملُه من وجودٍ ومستقبلٍ واستمرار، ولاختلافِ المعايير بين الداخليّ والخارجيّ، فإنَّ الحشدَ المتزايدَ تحت الكوبري لم يكُن يخطرُ ببالِهم أنَّ الأمورَ ستتعدى نوةً سيئة ذات آثارٍ جانبية ربما تصيبُ البعضَ لكنها ستمرُّ وتستمرُّ الحياة كعادتِها الصفيقة، بينما كان علاء والطبيعةُ في الخارجِ يفكِّران ـ

إنْ كان للطبيعــةِ عقلٌ ـ فــي عكسِ ذلك تمامًا، كان يتابعُ صرخةَ الرياحِ المترددةَ في الأشــجارِ من حوله تميلُ في هلعٍ وتحركُ أغصانَها كأذرُعِ أمٍّ تدعــو أبناءَهــا أنْ يختبئوا من المصيرِ القــادم، والجميعُ غارقون في ذهولِهم يتابعون الثلوجَ تتســاقطُ فوق بعضِها وترتفعُ أكوامًا، ويرصدون في بلاهــةٍ ما تفعلُه الرياحُ بالأشــجارِ التي تســاقطَتْ كقطَعِ الدومينو وأعمــدةِ النور التي فقــدَتْ كبرياءَها وأســلاكَها والســيارات المترنحةِ كأوراقٍ فوضوية.

تجاوزَ كلَّ ذلك ســريعًا، تجاوزَ اللحظةَ الراهنة بمخاوفِها ومكوناتِها وعنفوانِهــا، وقفزَ إلى الـ«ما بعد» فتملكَهُ الخوفُ مما تُخبئهُ الغيومُ في بطنِها أو تأتي به الريحُ خلفَها، ولم يكن يملكُ رفاهيةَ الاستسلامِ لخوفه ولا للمشــاعر أيًّا كانت، علاء توفيق لا يشــعر بشيءٍ يؤخرهُ عن الخطوةِ التي يجبُ عليهِ اتخاذُها، ظروفُهُ فرَضَتْ عليه أنْ يكونَ عمليًّا، أنْ يتحركَ بحثًا أو هربًا، كلاهما يستويان على حافةِ الحياة، تعلَّم أنْ يتجاوزَ البكاءَ علــى اللبن المســكوب إلى البحثِ عــن حلولٍ لتعويضــه ولو بجمعه مخلوطًــا بالتــراب، ابنٌ أصغر على ثلاث بنات، ودَخْــلُ الوالدِ - المزارعِ بالأجرة - يكفي تعليمَهم بالكاد، إجازاتُ المدرســة يُمكنُ استغلالُها في أيِّ عمل، جنيُ القطن أو أعمالُ البناء والمحارة بدلًا من اللعبِ والجريِ في الشوارع، تحملَ مسئوليةَ نفسه مبكرًا لأنَّ الحياةَ كانت بخيلة، نجحَ لأنّه لا يحتملُ تكلفةَ الفشــل التي تعني الانخراطَ المحتومَ في الزراعة والعملِ اليدويّ كمعظمِ الريفيين حولَه.

t.me/qurssan

فعلَ ذلك دائمًا؛ حافظَ على ثباتِ المسافةِ بينه وبين الفشل لكنْ اكتشفَ في مرحلةٍ ما أنَّ للنجاح الجامحِ تكلفةً لا يطيقُها مزارعٌ بسيطٌ كأبيه؛ لا يملكُ سوى نزاهةٍ مرهِقة وذراعٍ لا تكلُّ ولا تمتدُّ لأحد، وأملٍ غريبٍ في تعليمِ أبنائه ليكونوا ما لم يستطعْ أنْ يكونَه، بالطبعِ لم تكُن تكلفةُ النجاحِ الباهظة فقط هي ما حدَّتْ من طموحِه، طبيعةُ شخصيته ساهمَتْ في الأمرِ بطريقةٍ ما؛ عاطفتُه التي انتزعَتْها الأيامُ والشقاءُ من قلبه غرسَتْها في عقله فنمَتْ إلى ملَكَةِ الأدب والكتابة، عواطفُ مُعلَّبة لا تملكُ رائحةً ولا ظلًّا لكنها موجودة.

رأى الأمرَ على حقيقته كما يظن، وكانت حقيقتُه تُشِعُّ من مصدرٍ واحدٍ ووحيد هو الحرية، اختار أنْ ينتزعَ لنفسه هامشًا من الحريةِ تزدهرُ فيه موهبتُه ولا يضحي فيه بكاملِ نجاحِه، فالتحقَ بكليةِ الآداب قسم لغة إنجليزية، الكلية لطيفة لا تحتاجُ حضورًا دائمًا ولا مذاكرةً طوال العام، وعملَ في كافيه لينفقَ على نفسه ويلتقي بصعاليكِ الموهبةِ الذين تتوطدُ علاقته بهم مع الوقت، يقرأ ويتعلمُ ويناقش، ويعملُ ليأكُلَ وليكونَ العملُ نافذةً على العالَم ، وصبَرَ على موهبته صبرَ الفلاحين على محاصيلِهم، حتى يشتدَّ عودُها وتنضجَ ثمارُها، فلما بلغ الضغطُ في رأسه أشده وتمكَّنتْ منه حرفةُ الأدب رأى حقيقةً أخرى تنجلي، قصةُ الحبِّ القديمة ما زالت عالقةً بثيابه، فعاد ليتخلصَ منها، وها هو يقفُ في منتصَفِ الطريقِ مذعورًا محاصَرًا في مساحةٍ تضيقُ حتى تكاد تبتلعُه يواجهُ ما يمكنُ أنْ يكونَ نهايةَ العالَم، خاطرٌ مزعجٌ

يســتمرُّ الطقسُ في الصراخِ به، لكنَّ الأديــبَ الفلاحَ الذي قرَّرَ أنْ يعيدَ صياغةَ العالَم ليس مســتعدًّا لتقَبُّلِ نهايةِ العالَم، ليس بعد كلِّ ما مرَّ به وليس قبل أنْ يصنعَ قدَره الذي حلمَ به وســعى إليه، ليس قبلَ أنْ يقرأَ العالَــمُ ما يدورُ بذهن ابن محمود توفيــق، وتصنعَ كلماتُه واقعًا مغايرًا وأحلامًــا لا تقبلُ التنازلات، شــحذَ ذهنَهُ وحواسَّــهُ كلَّها من أجلِ هدفٍ واحد .. النجاة من الخطر ولو كان الخطَرُ هو نهاية العالَم.

في ذلك اليومِ البعيد، لم يُدرِك علاء أنَّ الرعبَ الذي أظلَّ العالَمَ كلَّهُ تغلغلَ بطريقةٍ ما داخلَهُ، ورغمَ ما بدا عليه من عزمٍ على إكمالِ الطريقِ إلى مجهولٍ آمِن، إلا أنَّ طفلًا خفيًّا يسكُنُه كان يرتعدُ مع كلِّ طرقةِ رعدٍ وهبــةِ ريــح، ذلك الطفلُ الذي ســيخرُجُ مــن مكمنه الخائــفِ ليتمتمَ اســتحضارًا واســترضاءً لقوةٍ خفيةٍ خلفَ كلِّ شيء ليقولَ رغمَ كلِّ شيء: **يا رب**.

t.me/qurssan

- 5 -

على حافةِ اليابسةِ المبتلة جسدٌ أنثويٌّ ضامر، مُمددٌ في حُلَّةٍ سوداءَ تلتصــقُ به، تلعقُهُ الأمواجُ المغيرةُ ثم تنحســرُ عنــه، وتتحركُ مع الريحِ خصلاتٌ من الشــعرِ تكسرُ حدةَ الســكون وتُضفي عليه حيويةً لطيفة، الشمسُ حديثةُ العَهدِ بالمكان، تبذلُ جهدًا كبيرًا في المرورِ خلالَ الغيوم لتطلَّ عليه بينَ حينٍ وآخَر، مرَّتْ ساعةٌ قبلَ أنْ تنبضَ الحياةُ في الجسدِ الممدد، تشــنجَتِ الأصابعُ الصغيرةُ ثم تحسســتْ حباتِ الرمالِ تحتها، انتقلَ تيارُ الحركةِ في أنحاءِ الجسد ولم يَمْضِ وقتٌ طويلٌ قبلَ أنْ يتحركَ الرأسُ المنفــوشُ فوقَ عُنُقٍ رفيعٍ صلب، انفتحَــتْ عيونُها بصعوبةٍ غيرَ مســتوعبةٍ نفسَها أو ما حولَها، وحين بدا أنَّ عقلَها استردَّ الحياةَ والوعيَ انتفضَتْ فانقبضَتْ كلُّ عضلةٍ في جسدِها، هبَّتْ جالسةً ثم قامت يدورُ رأسُها وتهتزُّ الأشياءُ حولها.

ركضتْ فوقَ الرمالِ الناعمة غيرَ مُصَدِّقةٍ أنها نجَتْ من كلِّ شــيء، لا تذكُــرُ كيف وصَلَتْ إلى اليابســة، وربما ليســت واثقةً حتــى أنها على اليابسة، خبطَتْ بقدمِها في الرمالِ وتودُّ لو كان معها من يقرصُها لتتأكدَ أنهــا لا تحلــم. تحركَتْ مبتعدةً عــن الماء وما حملهُ من هلاكٍ وشــيك لتبحثَ عن مأوى أو ما يُبَشِّرُ بوجودِ حياةٍ قبل أنْ يُطبِقَ الليل.

على مسـافةٍ منها يُحدثُ الفتى الملثمُ الأطفـالَ الثلاثةَ الذين ألقى بهم المدُّ إلى الشـاطئِ مسـاءَ أمس، جلسـوا يتضاحكون بعد أنْ أمِنوا وأكلوا واستقرَّ بهم المُقامُ في رعايتِه، اطمأنَّ عليهم وأجرى معهم حديثًا مقتضبًـا أنهـاهُ بأمرٍ صارمٍ ألا يبتعدوا عن المـكان، وإذا أمطرَتْ فجأةً ـ كعادتِها ـ أنْ يَدْخُلوا إلى الكهفِ بأقصى سرعة، أعاد التحذيرَ بلهجةٍ أكثر رقـة ثم قام يتفقدُ المنطقةَ كعادتِه، يخشـى عليهم ليلًا يأتي فجأة في جزيرةٍ يمكنُ أنْ تكونَ مخيفة له قبلَهم.

قبلَ أنْ يأتوا كان يتجولُ في الجزيرةِ بحثًا عن ناجين، عن حياةٍ غيرِ حياته صمدَتْ في وجهِ الموتِ والانهيار، النجاةُ تمنحُ شـعورًا بالاكتفاءِ كالذي يُحققُهُ الطعامُ للجائع، لكنَّ النجاةَ بوصفِها إشـباعًا لغريزةِ البقاء تشـبهُ غيرها مِن طرُقِ إشـباعِ الغرائز، سريعةُ الملل، وأقصرُ الطرقِ إلى الملِ الوحدةُ، الوحدةُ تُفْسِدُ طعمَ النجاة وتقتلُ متعةَ الحياة، ربما هذا ما دفعه إلى البحثِ كلَّ يوم، وربما كان ما دفعه إلى البحثِ في البداية هـو إيمانُه القابعُ في نقطةٍ بعيدةٍ داخلَه، أنَّ الإنسـانيةَ لم تغرقْ، وأنَّ الطوفانَ الذي حدثَ لم يكُنْ سوى نقطةٍ عابرةٍ ستتجاوزهُ الحياةُ بغرابتِها المعتادة وطولِ نفسِها الذي يُحِيلُ آلهةً وشياطينَ وممالك وأبطالًا وملوكًا وأنبياءَ إلى مجردِ صفحاتٍ في كتبِ الأسـاطير أو كتبِ التاريخِ لأكثرِهم حظًّا، من نقطةِ الإيمانِ تلك كانت البدايةُ، ثم اعتادَ الأمر وتحولَ البحثُ إلى نشاطٍ يوميٍّ يملأُ وقته ويتعرفُ به على الجزيرةِ ومحيطِها الغريب، الطوفانُ أضفى عليه نُوحيَّةً مهيبة لكنَّهُ نوحٌ بلا وحيٍ ولا سـفينة، فقط نجـاةٌ معجِزة ولحيةٌ كثيفةٌ ملتفـة تحتَ لثامٍ يُبدي عيونًا حمراءَ أرهقَها

t.me/qurssan

الملحُ والبكاء، ورثاثةُ شـيخٍ قضى ألفَ عامٍ في انتظارِ الهلاك والاستماتةِ في تجنبِه.

يميلُ بجسـدهِ كلّه على القدمِ التي تسـتقرُّ على الأرضِ أثناءَ سيره، ويقفُ بين حينٍ وآخَر يتفقدُ شـيئًا ما في الأرضِ، ثم يكملُ في طريقِه، ودائمًا يُكملُ مهما كانت الظروف، ليسـت صلابةَ الأبطالِ بقدرِ ما هي مرونةُ الفقرِ القديم.

رأى ظـلًّا عموديًّا علـى مدٍّ بصره يركُـضُ باتجاهِ الشـمسِ الغاربة، اسـتوثقَ أنَّ عينَـهُ لا تخونُه، ثم نادى بلهفـة، التقطَتْ نداءهُ من الهواء وتتبعَتْهُ أذنُها بغريزةٍ مُدرَّبة قادت عينيها إليه، ملابسُها تقطُرُ ماءً وعيناهُ تقطـران حنانًا، غريبان التقيا لقاءَ عاشـقَيْن فرَّقَتْهمـا الأيام، أماطَ لثامه وخلعَتْ تحفُّظَها وتركا للصمتِ مساحةً يستحقُّها في موقفٍ كهذا، لكنَّ كلَّ السكونِ الذي أصابَ الألسنة تحوَّلَ إلى حركةٍ جنونيةٍ لكرات العيونِ وعضلاتِ الوجهِ التي تنقبضُ وتنبسِـطُ كأنها أذرعٌ تحتضنُ الآخَرَ وتقولُ كلَّ شـيءٍ مُضمَرٍ من لهفةٍ وشـكوى وشوقٍ وتطمين، تعارفَا وسرَتْ ريحٌ خفيفةٌ فارتعشَـتْ، انتبَهَ إلى ملابسِها الملتصقةِ على جسدِها من البلل، خلـعَ رداءهُ الفوقـيّ ولم يكن سـوى جوالٍ من الصوف، قطـعَ زاويتَيْ أرضيَّته ليُخرِجَ ذراعيه منهما، ولبِسَـهُ على ملابسه يُدفئُ ظهرهُ ويحميه مـن غائلةِ البرد، حيلـةٌ تعلمَها من أبيه الفلاح حين كان يخرم شـكائرَ الأسمدة البلاستيكية بنفس الطريقة ويرتديها في الشتاء لتحميه من بللِ المطر وطينِ الأرضِ الذي يتشبثُ بجذورِ النباتات.

لبِسَــتْ «العباءةَ» الصوفية وشــكرَتْهُ بســذاجةٍ طغَتْ على كلماتِ الشكرِ فخرَجَتْ غمغمةً غيرَ مفهومة.

سارا معًا حتى موضعِ الأطفال، ارتاحت أكثرَ بوجودِهم، وهدأَتْ في رأسِها أجراسُ التوجس ومطارقُ الخوفِ والارتباكِ من الغريبِ، الذي مدَّ لها طوقَ الأنسِ والأمان بعدَ أيامٍ طويلة لم تسمعْ فيها غيرَ صوتِ الموجِ المتلاطم يقرعُ سمعَها، والرياحِ الغاضبة تفُحُّ بالوعيد.

حين رأتْهم يركضونَ ناحيتَهما نَدِمَتْ على توجُّسِها منه وألقَتْ عليه نظرةَ اعتذارٍ لم يفهَمْ منها ســوى الشــكرِ والامتنان، ســلَّمَتْ على مينا وبيشــوي وســالم بحفاوةٍ متبادَلة، أحضرَ لها كومةَ ملابس مِمَّا جاد به الموجُ تنتقي منها ما يَصلحُ، ودلَّها على مكانٍ تخلعُ فيه ملابسَها المبللة، ارتــدَتْ بعضَ ما أعطاها وعقدَتْ أطرافَها فتحولَتْ بقدرةِ قادرٍ إلى رداءٍ نسائيٍّ بسيط يصلُحُ طبقةً أولى تحت الجوال الصوف الذي لم تُضَحِّ به كمصدرِ دفءٍ وكهديةٍ أولى في أولِ لقاء.

t.me/qurssan

- 6 -

كان الليلُ قد أطبقَ بثِقَلِهِ البارد فورَ أنْ غابَت الشــمسُ، وهي مقبلةٌ عليهــم فرِحةً تتعثرُ في الرداء الطويــل الملتف كطفلةٍ خجلى في رداءِ عيدِها، فاســتقبلوها بقطعةِ سمكٍ ســاخنة كانت كلَّ ما تبقَّى من صيدِ أمــس الذي لم يُفْلِحْ في تَكراره اليوم، جلسَــتْ بينه وبين ســالم، وكلٌّ نقطــةٍ في جســدِها تئِنُّ مِن التعب، فأكلَتْ برقــةٍ مصطنعة، ولم يلبثْ الأطفــالُ الثلاثــةُ أنْ داعبَهم النــومُ فقاموا إلى الكهــفِ وصحِبَهم حتى اطمــأنَّ على غطائِهــم، وهيَّأَ ركنًا يصلُحُ لنومِها مفصولًا بســتارةٍ مهترئة وبعضِ ألواح الخشــب ثم خرجَ إليها، جمعَتْهما النارُ يتدفآن، جسداهما ينتفضان من برودةِ الليل، وروحاهما تهفوان إلى عناقٍ مُحَمَّلٍ بكلِّ آلامِ الإنســانيةِ المغدورة وجراحِها الغائرة، بدا وجهُها في ضوءِ النارِ أيقونيًّا، امرأةٌ هي كلُّ النساء؛ ملامحُها متوترة وجمالُها هادئ وأنفُها رفيع، تبتسمُ فتنكمشُ مناطقُ في وجهِها وتتسعُ أخرى لتشكلَ خطوطًا ومنحنياتٍ في بشرتِها تفتحُ ممراتٍ يسيرُ فيها المرءُ إلى رُوحِها بسهولة.

ـ الليلُ يزدادُ برودة مع أنَّ الشمسَ بدأتْ تعرفُ طريقَها إلى السماءِ معظمَ أوقاتِ النهار.

ـ يبدو أنكَ هنا منذ زمن..

ـ .....

ـ أولادُك؟!

أطلقَتْها غير باحثة عن إجابة، وعضَّتْ على شفتيْها من سذاجةِ السؤال.

ضَحِكَ وصوَّبَ نظرةً عطوفًا إلى عينيْها اللامعتين في وهجِ النار:

ـ وهل تظنينَ القدَرَ كريمًا أو عشوائيًّا إلى درجةٍ تسمحُ بنجاةِ عائلةٍ كاملة في هذه الفوضى؟!

لم ينتظرْ إجابتَها:

ـ لا، كانــوا فــي جبــل «أبو ماضــي» يقضون شــأنًا من شــئونِ ديرِ «القديسة دميانة» مع راعٍ لهم حين وقعَتِ الواقعة، والتقطتُهم من على خشــبةٍ عائمة في الناحيةِ الشرقيةِ أمس وهم يصرخون رهبةً مــن نزولِ الماء ومن أنْ يســحبَهم الموجُ بعيدًا عن اليابســةِ التي وجدوها أخيرًا.

سَــرَحَتْ في الدير الذي أصَرَّ حسين أنْ يصحبَها إليه في المولد في أواخــر خطوبتِهما، وكيــف احتالَ على أخيها لينفردَ بها ويمسِــكَ يديها خشيةَ الزحام.

ـ أين نحن؟! وهل تعرفُ ما الذي حدثَ بالضبط؟!

ـ لا أملكُ معرفةً مؤكدة لكني أظنُّ مصرَ غرِقَتْ بكاملِها. من أين أنتِ يا صفية؟!

ـ أصلًا من الشرقية، الحســينية، بكالوريوس زراعة جامعة الزقازيق، كنتُ أسكنُ جبلَ «أبو ماضي» مع حسين زوجي وابن عمي، نعملُ

t.me/qurssan

فــي حصــادِ البطيخ طوال الموســم من قطعــةِ أرضٍ يملكُها قربَ الطريقِ الدوليِّ، ونبيعُه في تعريشةٍ على جانبِ الطريق، لم أكملْ ثلاثةَ أشــهرٍ على ذمته حتى انقلبَت الدنيا، وظللتُ أستحلفُه بكلِّ عزيزٍ أنْ نعودَ إلى أهلِنا وهو يماطلُ ويسخرُ من خوفي من «حبة شتا» بعيدًا عن أمي.

ابتسمَ من بساطتِها، وأشارَ كأنهُ يطمئنُها:

ـ أنا من جيران الجبل، كيف وصلْتِ إلى هنا بعد كلِّ هذا الوقت؟!

ارتعَشَتْ واقترَبَتْ من النار.

ـ الحكايــة طويلة، لم نفهَمْ ما يحدثُ في البداية، قلنا نوة شــديدة بعدها تهدأ الرياحُ وتصفو السماء، لكنَّ الرياحَ لم تهدأْ ولم تصفُ السماء بل زادت، وبدأَ الثلجُ يتساقطُ بعنف، والبحرُ يتصاعدُ زئيره ويقترب، حتى فوجئنا بالموجِ تحت أقدامِنا ثم فوق رءوسِــنا ... لم أجِــدهُ بجواري فجأة وجرفَني الموجُ في دوامات، تشــبثْتُ وتركتُ نفســي لعنايةِ الله، لا أعــرفُ أيَّ اتجاهٍ أعادني إلى هنا، متُّ آلافَ المرات..

نشــجَتْ وارتعشَــتْ فاقتربَ يربتُ على كتفِها، أنيــسٌ لم تبخلْ به الأيــام، وأنــسٌ ردَّ إليه جزءًا من عقله وإنســانيته، لو علمَــتْ ما أحدَثَهُ ظهورُها فيه.

كيف يمكنُ لإنسانٍ أنْ يحبَّ نجاةَ إنسانٍ آخَر أكثرَ من نفسِه؟! لكنهُ أحــبَّ نجاتَكِ يا صفيةُ أكثرَ من إدراكِك أنتِ لأيِّ مشــاعرَ تجاهَ نجاتِك،

أنــتِ الآنَ لم تجدي الوقتَ لتحبي ما حدثَ بعدُ، تعيشــينه فقط على حقيقته وتســتمتعينَ بكلِّ ذرةِ هواءٍ تدخلُ صدرَكِ، لكنَّ الفتى الجالسَ بجــوارِكِ وجدَ الوقتَ الكافيَ ليحبَّكِ، وانتظــرَ كثيرًا ليراكِ ويقدرَ نجاتَكِ حقَّ قدرِها.

وملأتها الرهبةُ من جلالِ المحبةِ في عيونه والحنان في تصرفاتِه. هو الحبُّ لا تخطئُه عين، ولأنَّ الأمرَ أســرعُ من اســتيعابِها ارتبكَتْ وآثَرَتْ الانســحاب؛ إذْ بــدا لها الفتى لأولِ مــرةٍ منذ قابلَتْــهُ مجنونًا أو خطيرًا، فتعللت بالنوم وتركَها لتســتريح قبلَ أنْ يمضيَ إلى البحرِ بقلبٍ يتســعُ لاحتضانِه، وســلامٍ يكفي ليســامحَهُ على كل شــيء. عادَ بالأنسِ عقلُه، واطمــأنَّ بصفيةَ والأطفالِ الثلاثــةِ بالُه. وضحِكَ كما لم يضحَكْ من قبل؛ من الحياة التي تعطيهم أســبابًا للاســتمرار ثم تسلبُها منهم في لعبةٍ لا تنتهي ودورةٍ لا تتوقف، وضحكَ من الحياةِ التي تمارسُ اللعبةَ باحترافٍ وتمكُّن، وضحك من الموتِ الذي يلتزمُ في المسرحيةِ بدورٍ صامتٍ بالغِ الصرامــة لم يطمــعْ يومًا في تجاوزه، ولم يكــن لأيِّ لاعبٍ آخَرَ كاريزما تنتصــرُ على وجوده الغامر، وضحــكَ من الحب الذي هربَ منه برعونةٍ واستســلمَ له برعونةٍ أكبَر. لكنَّ الشــيءَ الذي أضحكَهُ أكثرَ من سواه لم يكن ســواه، فأغرَقَ في الضحكِ من نفسه المتأرجحةِ بين حبالٍ وهمية من اليقين والشــك والخوفِ والطمأنينة؛ حبالٌ لم يتمكنْ يومًا من رؤيةِ آخِرِها قبلَ الصعودِ على أولِها ليتأكدَ هل ستتحملُه أم تهوي به في هوةِ العــدمِ والجنون. لكنْ لم يمنعْهُ ذلكَ مــن تقمُّصِ الجديةِ في كلِّ نقلة، ولم يتوقفْ مرةً ليتساءَلَ تساؤلًا مشروعًا عن مدى حقيقةِ الأمور، ومضى

t.me/qurssan

فــي دواماته تحملُهُ يــدٌ وتلقيه أخرى. وأطلَّ الفتــى من ضحكاته على دمــوعٍ تغســلُ وجهَه، هذا هــو إذن الضحكُ حتى البــكاء، فأفرغَ قربةَ الدموعِ كلها مرةً واحدة، ثم جلس يتأملُ الليلَ المطلَّ على الوجود صمتًا وظلامًا يفرضُ ســلطانه على الجميع، بــدا له الأمرُ أعمقَ من مجردِ لونٍ يصبــغُ الكونَ ، كان الصمتُ أجلَّ مــن مجردِ غيابِ الأصواتِ والضوضاء، إنــهُ حقيقةٌ كالموت. مع خطوطِ العرقِ الباردِ تتهادى على وجهه حدَّقَ في الصمــتِ البعيد، الصمت الحقيقيّ الــذي لا يجرحه ضجيج، صمتُ السماءِ الأبديّ، لغةُ اللهِ الذي لم يتكلم إليهم منذ خلقهم ملتزمًا بقانونٍ بدا يســيرُ عليه أكثرَ مما يسيرُ عليهم، الصمتُ هو الإله الحقيقيّ، الإله المتغلغــلُ فــي تلافيفِ الكــون، لا يُظْهِرُ ذاته للإنســانِ إلا في لحظاتِ الوحدة، في أعمقِ أعماقِ نفســه يتحدثُ إليــه دون حاجةٍ إلى صوت، ورأى فــي جــلالِ اللحظــةِ أنَّ كلَّ الكونِ خاضعٌ لذلــك الإلهِ الرهيب إلا الإنســان، وحدهُ ارتكَبَ خطيئةً لا تُغتَفر، ومارَسَ فعلًا شــيطانيًّا يتحدى إرادةَ الإلهِ الأعظم حين نطقَ فأفسَــدَ كلَّ شــيء، وهاهم كبارُ الصوفيةِ ومشــايخُها يحــذرونَ من كشــفِ الحقيقــةِ بالكلام ويفضلــون الموتَ صامتيــن، البوحُ لديهم جريمةٌ تســتحقُّ استشــهادَ صاحبِهــا لتكفيرِها، والســهروردي والحلاجُ علَمــان قتلَهما البوحُ عن إلــهِ الصمتِ والخوضُ فيه بالكلام.

انظُرْ إلى نفسِكَ يا علاء جالسًا على حافةِ الليلِ والطوفان تنبشُ في نهايةِ العالَمِ عن جذوةِ إيمانٍ تُهَدِّئُ خاطرَك، نجوتَ لكنكَ ما زلتَ تبحثُ عن سفينة، السفينةُ التي لم تلجأْ لها إلا بعد قدومِ الطوفان. تُراها كانت

بيــن عينيــكَ طوالَ الوقــتِ تناديكَ ببوقِهــا المكتومِ أنْ تركــبَ، وكنتَ تتجاهلُ النداءَ وتوغِلُ في الشــوارعِ المسفلتَةِ تُغريكَ بتجاهُلِها أكثرَ، لم تكُنْ نوحًا إذن. كنتَ على الجهةِ الأخرى تتعجبُ من النوحيين البدائيين السُّذَّج وتسخَرُ من سفينتِهم الوهمية التي لن تجدَ ماءً تسيرُ فيه.

أيــن الحقيقةُ أيها العالَمُ المجنون؟! في الإيمــانِ الهائمِ بين الآياتِ الشفافة؟! في السعيِ الحثيثِ إلى ذاتٍ راسخةٍ في الأرض؟! أم في تقَلُّبِ الحــالِ بين هذا وذاك؟ وأيُّ إيمانٍ يشــبهُ الحقيقةَ أكثــر؟! إيمانُ مريَمَ المُحِبَّة التي ترى حبيبَها بعينٍ كليلةٍ، وتثقُ في الزمنِ الذي غفلَ عنها أنْ يغفلَ عن الجميع، فتغرفُ من بحرِ محبتِها بســخاءِ من لا يخشــى جفافًا ولا يُخَوِّنُ حبيبًا؟! أم إيمان محمود أبو توفيق الغليظِ الذي تشقَّقَتْ يداه وانحنى ظهره ودارَ في الســاقيةِ كثورٍ مخلصٍ لدورتِها التي تمتصُّ عافيته حتــى اتحــدَ معها لا يكفُّ عن الدورانِ ولا تشــبعُ من غــرسِ نيرِها في لحمِــه؟! أم إيمانُ نعمة الحصري المنكفئةِ على حالِها الغامضِ تتأنى في كلِّ شــيءٍ وتحرِّكُ الوجودَ حولَها بثباتٍ وســكينة، لم تُرَ دموعُها إلا نادرًا، ولــم تُرَ ضحكاتُها إلا من ثقبِ لحظةٍ لا تتريــث، تحملُ في عيونِها حزنًا كاذبًا وتربُّصًا عميقا؟! أم هو إيمان محمود العيســوي الراســخِ الذي لم يســعفْهُ علمُه ولا أغنى عنه رســوخُه فدُفِنَ في المكانِ الذي شَهِدَ إنباته قبلَ أنْ يشــهدَ ثماره؟! أم تُراهُ إيمانَ منتصر الســلفي الذي يســتندُ إلى تاريخٍ بعيدٍ يمتلكُ سطوةَ القفزِ على الحاضرِ ولا يحرمُ صاحبَهُ القفزَ على النســاء أيضًا؟! أم هو إيمانُكَ أنتَ المتوتر لا يســتقرُّ على حالٍ ولا يركنُ إلــى جذر، ريشــةٌ في مهــبِّ الريح، يغريــكَ وجودُها بأحــلامِ الطيرانِ

t.me/qurssan

ويخذلُـكَ ضَعفُها في أولِ اختبارٍ حقيقيّ، تمتلئُ بهِ كأنه أبوكَ وأمُّكَ، ثم تقيئُه كأكلةٍ حامضةٍ تفسِدُ بطنَك، يصَّاعَدُ بكَ في السماءِ نبيًّا ترى الكونَ شـفيفًا رائقًا، ثم يهوي بكَ على جذورِ رقبتِكَ في ظلامٍ إسـمنتيٍّ مزدحم، تتشـممُ لقمةَ العيشِ أو أمانَ الرفقة؛ فتلعَنُ نفسَـكَ وزمانَكَ وسـماءَكَ البعيدة بكفرٍ أقربَ ما يكونُ إلى خيبةِ الأمل؟!

انظرْ إلى نفسِـكَ جالسًـا على حافةِ الليلِ والطوفان تتغذى على ما خلَّفَهُ الموتى وتقعُ في حبِّ امرأةٍ لا تعرفُها، لا جمالَ يُؤججُ الميلَ إليها، ولا عشرةَ تتسـللُ من سراديبِها المتعة، وجودٌ جافٌّ كالعزلةِ تمامًا لكنه يفـرضُ نفسَـهُ على قلبِـكَ الجريح، ويفتـحُ الأبوابَ لمشـاعرَ مُضْحِكة وخيـالاتٍ مراهِقة، لكـنْ ربما لأنكَ لم تنجُ بعد رغمَ إفلاتِكَ من الموت، لسـتَ حيًّا تمامًا، وربما هي سـفينتُكَ وحدَك، سـفينتُكَ لنجاةٍ حقيقية وحياةٍ حقيقية، فلا تتنكَّرْ لها ولا تكبَحْ نفسَـكَ، فليسَ في الأمرِ متسَـعٌ للمراوغة، لم تمضِ ليلةٌ على نجاةِ الأطفالِ قبلَها، أعادوا إليكَ الطمأنينة والأمل، لكنكَ استقبلْتَ نجاتَها برُوحٍ عطشى، كأنها هديةٌ تنتظرُ وصولَها بفارغِ الصبر، هي الماءُ الذي سيسـقي الأملَ فيورِقُ ويثمر، وهو الحبُّ يا غبِيّ، الحبُّ الذي كان السـفينةَ الحقيقية، لكنَّ عمى قلبِكَ حالَ دون رؤيته والتشـبثِ به، فُتِنْتَ بالحريةِ ونمتَ مع صفائحِ القمامةِ إشـباعًا لمتعةِ الانسـلاخِ من الأرضِ التي تقيِّدُك، الأرض التي كدتَ تموتُ نابشًا عنهـا فـي بحرٍ لُجِّيّ ولم تعرفْ قيمتَها إلا بعدَ فواتِ كُلِّ الآونة ولم يعُدْ للندمِ جدوى، ومتى كانت له جدوى؟!

- 7 -

تجنبَتْ صفية التعري أو تغييرَ ملابسِها أيامًا، رغمَ حقيقةِ أنَّ الجميعَ ناجـونَ علـى أرضٍ بلا ملكية، إلا أنها لم تسـتطِع التخلصَ من شـعورِ الضيـف، اعتبَرَتِ المـكانَ ملكًا لعلاء وهو مضيفها، ولم يسـعَ هو إلى ترسيخِ شعورٍ عكسَ هذا، فهو يحضِر الطعامَ بين صيدٍ أو مخلفاتٍ ألقاها البحر، وهو يضعُ الخططَ ويرسمُ مسارَ اليومِ ويلتزمُون به، ورغمَ ما رأتْهُ من إشـاراتٍ حين حلقَ الفتى الأشـعثُ لحيتَهُ وهذَّبَ اختيارَ ملابسـه واكتسـى ثوبًا أنيقًا من التحضُّر مَرَّتْ عدةُ أيامٍ قبلَ أنْ تجِدَ في نفسِـها رغبـةً في تغييرِ الملابسِ والتزيُّن كامـرأةٍ غريبةٍ في بيتِ رجلٍ غريب، لكنها سـتتوقفُ قليلًا أمامَ هذا الشعورِ الوليد لتستكشفَ أصلَهُ وفصلَه، هل هو نابعٌ من رغبةٍ داخلية أم هو احتيالٌ أنثويٌّ ساذج أثارَتْهُ نظراتُ الفتـى الغريبةُ لديها؟ الأنثى أنثى والرغبةُ فيهـا تضعُ مكياجًا داخليًّا لا يلبثُ أنْ يدفعَها إلى إبداءِ جمالِها واسـتعراضِ أنوثتِها، والحقيقةُ أنها لم تشـعرْ يومًا أنها جميلة، بنتٌ عاديةٌ فيها من ملامحِ أمها وجهٌ مسـتطيلٌ وأنفٌ رفيعٌ شـبهُ غائب، ومـن ملامحِ أبيها عينٌ غائرةٌ وابتسـامةٌ تعيدُ ترتيبَ خللٍ لا يُدْرَكُ وجوده إلا بعدَ انتهاءِ الابتسـامة، ولم تشـعرْ بأنها مرغوبـة حتى طرَقَ حسـين ابنُ العـمِّ بابَها، لكنَّ نظراتِ علاء تشْـعِلُ داخلَهـا نـارًا لا تملـكُ خبرةَ التعامُـلِ معها، ضبَطَتْ نفسَـها ذات ليلةٍ تسـتعيدُ نظرتَهُ إليها وتُمَرِّرُها على كلِّ جزءٍ من جسـدِها حتى اشـتعلَ

t.me/qurssan

فخذاها نارًا واستحالَ الليلُ قيظًا لم يُطْفِئْهُ إلا جلوسٌ طويلٌ على شاطئِ البحر، فليكنْ إذًا ما يكون، رغبةٌ داخليةٌ أو هوسٌ أثارَتْهُ عيونٌ راغبة.

انتظَرَتْ حتى خرجَ مع الأطفالِ في اتجاهِ البركةِ والأرضِ التي يزرعُها بقربِهـا، حتى أحكمَتْ بابَ الكهـفِ، وأخذَتْ ملابسَ اختارتْها بعنايةٍ لم تُفَوِّتْ قميصَ نومٍ شـفافًا مشـقوقًا من نصفه الأسـفل، وملأَتْ إناءً من القنـاةِ التي حفرَها علاءٌ قـربَ الكهفِ لنقلِ مياهِ البِرْكةِ العذبة ووقفَتْ كجنيةٍ عاريةٍ تغسـلُ جسـدًا لم تفعـلْ به الأيامُ إلا مـا يفعلُه النحاتُ بتمثاله الأثير.

عادَ الفتى من الطريقِ فجأةً لبعضِ شـأنِه، نادى فلم تَرُدّ، دفعَ البابَ لم يُفتَح، فالتفَّ حولَ الكهفِ من كوةٍ خلفيَّة ونادى أكثرَ من مرةٍ حتى رآها في سـترِها البعيدِ تدعَكُ ثدييْها بماءٍ يسيلُ عنهما كرصاصٍ يخترقُ جسده، ومن عجبٍ أنْ يصيرَ الماءُ نارًا.

لم يحدثْ للفتى من قبلُ ما يدعوه إلى التلصص، كانت عينُهُ سليمةً لكنها لا تُبْصِرُ ما لا تطالُه يده ولم تجُعْ نفسُـهُ إلى النسـاءِ إلا ووجَدَ ما يَسُـدُّ جوعَـه، لم يُعْيِهِ صيدُ امـرأةٍ لأنه كان يُصَوِّبُ سـهامَهُ إلى عقلِها ويعبثُ برأسِـها فيُطيعُهُ الجسـد، غيرَ أنَّ الجسدَ الواقفَ أمامَهُ بعنفوانٍ دفعَ غريـزةَ التلصصِ إلى الخروجِ من مكمنِها فتراجعَ خطوةً إلى الوراءِ ليفتحَ لنفسه كوةً يرَى منها ولا يُرَى، الفتى الذي نام مع نساءٍ لم يحفظْ أسـماءَهُنَّ وجدَ دموعَ لذته تنهمرُ وجسـدهُ الشـابَّ يخرُجُ عن طَوْره، وحين أوشـكَتْ أفروديت السـنية على الانتهاءِ من غُسْلِها المقدَّس، لم تنتبِهْ إلا ووجَدَتْ أمامَها جسـدًا آخَرَ عاريًـا مرفوعًا على صليبِ الرغبةِ

فيهـا ولم يأخُذْها منه إلا ما رأتْهُ في تلك العيونِ النهمة، سِـحرٌ جذبَها وفعلَ بها الأفاعيل، دموعٌ تتراقصُ ونظرةٌ تمسـحُ كلَّ قطعةٍ من جسدِها فتشـتعلُ النارُ في الحطبِ وبين لحظةٍ وأخـرى كانت ترفعُ وجهَهُ بين يديها لتشبعَ من تلكَ النظرةِ أكثر وتمنحَه نفسَها أكثر، أصابَها كما أصابَتْهُ وذاقَ كلٌّ منهما الآخَر على فِراشٍ من البللِ والشهيق، وانخرطَتْ في بكاءٍ لـم تَـدْرِ من أينَ جاء، ارتمَـتْ رُوحُها في رُوحـه واعتصرَها الفتى بين ذراعيْه بكلِّ شـوقِ العطشـانِ إلى الماءِ البارد «**لن يكُونَ أيٌّ مِنَّا وحيدًا بعدَ الآن**».

t.me/qurssan

- 8 -

بنى الفتى عالَمَهُ من أطلالِ العالَمِ الغارق، استغرَبَ كيف استعادَتِ البدائيةُ مكانتَها بعدَ كلِّ ما مَرَّ من التاريخِ الإنسانيِّ، وشعَرَ بالامتلاءِ حين فكَّرَ أنهُ وصفيةَ سيبدآن العالَمَ من جديدٍ كآدَمَ وحواء، كانا قد استقرا في كهفِهما وأنشأ لبيشوي ومينا وسالم كوخًا في سَفْحِ الجبل، وبدآ حياتَهما معًا ناعمَين هادئين يُلَمْلِمان شعثَ الأيام بمحبةٍ لا تعرفُ السأم، وتوقفَ الفتى كثيرًا عند دلالةِ الزمن والتأريخ في غيابِ الحضارة، هل يظلُّ القرنُ الحادي والعشرون كما هو؟ أم تُراهُ انجرَفَ مع التقويمِ القديمِ ومُقَوِّميهِ إلى قاعِ النسيان؟ هو نفسُهُ لم يعُدْ قادرًا على حسابِ الوقتِ بالضبط ربما هو مارس أو إبريل أو حتى مايو، فما دلالةُ التقويمِ لمن لا يعبأُ به! وما نفْعُ الحسابِ الجامِدِ لِمَنْ مَرَّ بيومٍ كسنة؟ وابتسَمَ لنسبيَّته الجديدةِ التي تضاهي نسبيَّةَ أينشتَين وتفوقُها الآنَ حكمة.

قضى معها ومع الأطفالِ أيامًا يُكَوِّنونَ من الجزيرةِ عالَمًا لم يجد في نفسه ما يمنعُ أنْ يحلُمَ به يوتوبيا، غيرَ أنها يوتوبيا صغيرة تولَدُ من رحمٍ لم تُنْجِبْ إلا وبالًا على الإنسانية، هو النسيانُ يشبكُ أصابعَهُ في أصابعِ الأمل فلا يقاومُ الإنسان رومانسيةَ اللحظةِ ويستسلمُ للهوى المُحلِّقِ في الفضاء، نامَ في أحضانِها يحلُمُ بالمستقبَلِ ويتحدثُ حديثًا لا تفهمُ معظمَه، لكنها لم توقفْهُ مرةً ولم يرَ منها إلا تشجيعًا وانغماسًا في الحُلْمِ

معه، وسيكونُ هذا ديدَنَها معهُ تقطعُ من لحمِها وتُسويه على النارِ بلسمًا يداوي آلامه ويبُثُّ في جسده القوةَ والنشاط.

بعدَ شهورٍ رأى الفتى الأطفالَ يكبَرون ويشاكسونَ فغارَ من تبدُّلِ الحالِ الذي لم يتركْهُ يهنأُ بشبابِه، وأدركَ المسئوليةَ التي ألقاها القدَرُ على عاتقه تجاهَ هؤلاء الأطفالِ الذين تفتَّحَتْ عيونُهم على دمارِ العالَم، فعزمَ على الاضطلاعِ بواجبِه، ووضعَ جدولًا شديدَ الصرامةِ لتعليمِهم وإرشادِهم إلى ما ضَنَّتْ به الأيامُ عليهم، وهكذا كانوا يعملون جميعًا من قبلِ أنْ تطلُعَ الشمسُ في تمهيدِ الأرضِ ورعايةِ النباتات وحفرِ القنواتِ وبناءِ الأكواخِ والمخازن حتى إذا انقضَى أولُ النهارِ استراحوا ولعبوا، وقبلَ غيابِ الشمسِ بساعتَيْن يجلسُ إليهم فيُعَلِّمُهم ويناقشُهم، يقرءون ويكتبونَ ويحسبون، ثم يغشاهمُ الليلُ فيتسامرون حتى موعدِ نومِهم وهي تُطِلُّ عليهم من قريبٍ، تتعلمُ معهم وتضحكُ ثم تنضمُّ إليهم فتُضْفي على جلساتِهم مشاكسَةً مُحبَّبة.

t.me/qurssan

- 9 -

لــو كان لصفةٍ واحدةٍ أنْ تنافسَ النســيانَ في تكوينِنا فهيَ الفضولُ، تعريفُنا المجرَّد، الصوتُ الوحيدُ الذي طغى قديمًا على صوتِ الإلهِ فينا فأوقَعَ قطعَ الدومينو واحدةً وراءَ أخرى حتى تشَكَّلَتِ الحياةُ كما نعرفُها، سُــلَّمُنا الحريريُّ إلى المعرفةِ وطريقُنا الممهَّدُ إلــى التعلُّم والتطوُّر، لا تَــدري أحيانًا هل تنقمُ على ذلكَ الجين الموروث أم تدينُ له بالعرفان، لكنَّهُ لا يتوقفُ عن ممارســةِ دَوره ولا عن إبهارِكَ بآثاره تحتَ أيِّ ظرف. وتوقفَ الفتى الذي لم يعُدْ فتى كثيرًا أمامَ نفســه وقالَ: **نبدأُ من حيثُ انتهينــا ونقتفي موضعَ الأقدام**. وقالَ: **البقــاءُ أولَى والبدائيةُ برية**. فتحَ دواليبَ مُخّه واســتخْرَجَ المعرفةَ القديمة من مناجمِها كخبيرٍ بالأحجارِ الكريمة، وهكذا فعلَ كلَّ يومٍ فعلَّمَهم الوحشيةَ قبلَ التحضُّر، قرءوا معًا نجــومَ الســماءِ وعرفــوا اتجاهَ الشــمالِ بالنجــمِ القطبِــيِّ ليهتدوا في البر والبحر.

حســبوا المســافاتِ بالخطوات فقطعوا مائةَ متر في مائةٍ وخمســةٍ وعشريَن خطوةً وأخضَعوا الزمنَ لظلالِهم فعرفوا الساعةَ من طولِ الظلِّ وقِصَــره. هجروا الكهفَ والأكواخَ ليعيشــوا فوق الجبــلِ يُقَـطِّرون الماءَ المالِــحَ إلى عــذب، ويبنونَ فخاخًــا للطيورِ الشــاردة إنْ كان ثَمَّ طيورٌ لتشْــرُد. يصيدون لحمَ البحرِ الطريَّ ويأكلونَ من خشاشِ الأرضِ وأوراقِ

الأشــجار. صنعوا النارَ من احتــكاكِ الحجــارةِ، وداوَوْا جروحَهم قبل أنْ تتعفــن بعجينِ زهــورٍ بريــة، وداوَوْا حنينَهم قبــلَ أنْ يُفقِدَهم العقلَ والبوصلةَ، ثم عادُوا بعد عشرينَ يومًا إلى حضارةِ الكهفِ وأحضانِ صفية تســبقُهم دموعُهم وأشــواقُهم، فرضَتْ مهاراتُ البقاءِ ســبقَ الرياضيات والفيزيــاء والكيمياء، لكنها دروسٌ لــمْ تَطُلْ؛ لأنَّ المعلمَ لم يكُنْ متبحرًا فيهــا، وهي على كُلِّ حالٍ كالحجرِ الســاقطِ على مُنحــدَر تكفي دفعةٌ بســيطةٌ ليُكْمِلَ الســقوطَ وحده، مهارةٌ تتعلمُها فتعطيــكَ القدرةَ على استكشافِ غيرِها.

عادت ليالي الســمَر ودروسُ القراءة والكتابةِ والفلسفة والتاريخ، تعلَّمَ المعلمُ فيها بقدرِ ما تعَلَّمَ تلاميذه وعرفَ عن نفسه وعن العالَم ما لم يكُنْ يغنــي عنــه التأملُ والعزلة، أحبَّهُم كأولاده ولم يشْــعُرْ بخــواءِ صُلبه حتى همسَتْ صفيةُ في ليلةٍ باردة:

- **ستكونُ أبًا رائعًا.**

فارتعــشَ الكهفُ حولَهما باللــذة، وغاصَ الليلُ فــي لحمِهما وعرقِهما البــاردِ، وتكرَّرَتِ الليالي الباردةُ، وعَنُفَــتْ لقاءاتُهما حتى أدرَكَتِ المرأةُ ما أصابَ بعلَها، فهدَّأَتْ باله، وداوَتْ بابتسامتِها شروخَه، وبكَى في صدرِها كلَّ شــيءٍ بكاهُ أو لم يبكه من قبل، بكى طفولتَهُ الهاربةَ كشــهابٍ ســقطَ من السماءِ خطفَ بصرهُ وغاب، بكى تغوُّلَ الحاجةِ ومشاعرَ النقصِ التي خبأَها كعورةٍ في سراويلِه، وبكى شبابَهُ الذي قضاهُ ذهولًا وهرولةً حتى شابَ قلبُه وشعرهُ قبلَ أنْ ينقضي عقدهُ الثالثُ، وبكَتْ لبكائه ومسحَتْ دموعَهُ بثديِها العَاري تقولُ: «**أنا معك**».

t.me/qurssan

ويقــولُ: « **قُتِلْتُ ألفَ مرةٍ، أعرفُ الآنَ لماذا نجوتُ من الغرق؛ لأن الموتَ لم يفارقْني لحظة**». وينتحبُ..

«عمري تبَعْثرَ في اللهاثِ وراءَ أوهامٍ عجافٍ».

وتقــولُ: «**أنــا ألملمُه**». وتقبــضُ عليهِ وترســلُه كطفلٍ تخشــى أنْ يقتلَهُ الجزعُ.

ربما نخسَــرُ الكثيرَ لكنْ نعيشُ أحداثَ الخســارةِ كشريطٍ سينمائيٍّ يصيبُ أبطاله ونحنُ نتفرجُ أمامَ الشاشــةِ نمضــغُ الوقتَ والمتعة، لكنَّ الحفرةَ التي تتخلقُ داخلَنا يكونُ لها وقتٌ تتقيحُ فينفجرُ الصديدُ، وليسَ ألمُ الخسارةِ فادحًا إلا في إدراكِه.

امتــلأتْ دمــاؤهُ بمرارةِ العجــزِ، ونضحَ العقمُ علــى ملامحِه، فذبُلَ وانكمشَ وعاودَتْهُ عوارضُ الجنونِ القديمِ، لا شــيءَ يبقَى على حاله ولا أنــتَ يا نــوحَ الندامة، حقًّا ظننتَ يومًا أنكَ نبيٌّ له كرامةٌ؟! وأنَّ أحدًا ما فــي الفضاءِ البعيــدِ يحبكَ ويحتفي بوجودِكَ أو غيابِك؟! جلســتَ على صخرةِ الانتظارِ تمنِّي النفسَ بانتصارٍ أخيرٍ، سذاجةُ طفلِ الكُتَّابِ القديمِ ومثاليــةُ الكتبِ التي أكلَتْ منكَ وشــرِبَتْ ما زالت تتــركُ ندوبَها فيك، العدالــةُ التي لم تذُقْهــا والرحمةُ التي لم تعرفْها لا يزالان يعبثان بقلبِكَ كعــروسِ ماريونيت فترى العالَمَ جميلًا ومتوازنًا، كيف بعدَ طوفانٍ بتلكَ القســوة ما زالَ لديكَ أمــلٌ في إلهيةِ القدَر ولم تدرِكْ بعدُ شــيطانيتَه؟ خمســةٌ بلا حَوْلٍ يســكنونَ الفراغَ العظيمَ أسرى حصارٍ بالموتِ المؤجَّلِ القادِمِ من كلِّ مكان، وحبٌّ خادعٌ كالســرابِ يشُدُّكَ إلى الأرضِ ويحقنُكَ بالأوهامِ المتكسرةِ على صخرةِ العقمِ، يا عقيم.

ليلٌ بلا قمرٍ وسـماءٌ صخريةٌ بلا نجوم، كلُّ ما نلتَ من العالَم كهفٌ مجوفٌ قاسٍ كلُّ مهمته أنْ يقيدَك، بروفةُ قبر تهيئةً للموت، تدورُ الأيامُ دورتَها معنا، تحبو معنا وتمشي، وتنامُ وتصحو، وتبكي وتضحكُ، وتشيخُ معنا لكنها لا تتخلَّى عن نذالتِها، الزمنُ بلا أصدقاء، والمهزومُ بلا أصدقاء، في مرحلةٍ ما من الطريقِ تنكشفُ الحقيقةُ وندركُ كم أننا وحيدونَ في مواجهةِ كلِّ شيء، عُزَّلٌ في معركةٍ كنا نُعِدُّ لها عُمْرًا كاملًا، نكتشفُ على جبهةٍ شاسـعةٍ مكتظةٍ بالأعـداءِ ومهيئةٍ للانقضاض أنَّنا لـم نُعِدَّ لها إلا أنفسَـنا جنـودًا وسـلاحًا وخطةً بديلـةً، ويختلطُ الأمرُ هل كنا نتسـلحُ للمواجهة أم نُسَمِّنُ أنفسَنا خرافًا للذبحِ؟!

شهورٌ سرقْتَها من الموت وسرَقَتْكَ من الحياة، لا تندمُ على شيءٍ كما تندمُ على إحساسِـكَ الجارفِ بملحميةِ نجاتك، لـولاهُ ما وقفتَ مكانكَ والعالَـمُ يركُضُ من حولك، تَـضَخُّمُ ذاتِكَ أعماكَ عن رؤيةِ الحقيقة، أنتَ الذي لم يستسـلمْ لعاطفةٍ من قبلُ ولم يسـمحْ لجنونٍ من أيِّ نوعٍ أنْ يسـيطرَ على عقلِه، تنظرُ وراءَكَ الآنَ فترى نفسَـكَ منغمِسًا في الجنونِ ذاته الذي طالَما حاربتَه وقاتلْتَ للقضاءِ عليه.

t.me/qurssan

- 10 -

مع هبوطِ الليلِ خيَّمَ اليُتْمُ على الجزيرةِ التي كانت جبلًا، يُتْمٌ على الثلاثةِ الذين وجدوا أنفسَــهم يواجهونَ الأيامَ وحدَهم بعدَ أنْ اعتادُوا ذراعَ الأبِ تأخذُ بأيديهم وتدفعُ عنهم، وعقلَهُ ينيرُ لهم الظلامَ الحالِك، ويُتْمٌ على المســكينةِ التي ســلبَها الجنونُ رفيقَ الفِــراشِ وأُنْسَ الأيامِ الصعبــة، لــم تتمكنْ مــن النومِ وحدَها فــي كهفٍ تباعــدَتْ جدرانُه ونشــعَتْ فيها الرطوبة، خرَجَتْ تبحثُ عنهُ وسرعانَ ما يئِسَتْ، طرَقَتْ بابَ الأولادِ الذين لم يناموا وجلسَــتْ تأتنسُ بهم وتؤنسُهم لكنَّ الجوَّ القابــضَ لم يُخْفِ مــا في العيونِ من خوفٍ وتســاؤلات، أخذَتْهم إلى الكهــفِ وهيَّأَتْ لهم منامًا لم يلبثوا أنْ غرقــوا فيه، غلبَها النعاسُ بعد محايلــةٍ وتقلبٍ علــى كلِّ الجوانبِ، مضجعُها كوابيــس وغطاؤُها ألمٌ وعذابٌ، عاشتْ كلَّ ما في الكونِ من رعبٍ وانتفَضَتْ من نومِها دائخةً مكروشــةَ النفَس، طنينُ رأسِها طاحونة ودقاتُ قلبِها مطارق، استندَتْ على الجدارِ فخانتْها قدماها وانطرَحَتْ على الأرضِ في إغماءةٍ لم تُفِقْ منها إلا على هزاتِ سالم المذعور، أخذَتْ وقتًا كأنهُ دهرٌ حتى أدركَتْه وأخــذَتْ وقتًا أطوَل حتــى أدرَكَتْ ما يقول، ضربَ الــدمُ في نافوخِها

فهبَّتْ من الفِراشِ لكنْ خانتْها قوتُها مرةً أخرى، تحاملَتْ على نفسِـها لتنطقَ كلمتَين لم تَعِ منهما شـيئًا ثم غابت عن الوعيِ مرةً أخرى.

لم يجِدْ سـالم أملًا في إيقاظِها فأخذَ مينا فـي يَده وانطلَقَا ينفذانِ كلامَها، يبحثان عن علاء في الأماكنِ التي انفرَدَ بهما فيها أثناءَ تعليمِهما، ضَـلًّا طريقَهما أكثرَ من مـرةٍ وانخرَطا في بكاءِ العجزِ والرعبِ، لكنْ ثابا إلى رُشـدِهما بسـرعةٍ ووجداهُ نائمًا في ظلِّ صخرةٍ على حافةِ المَوْت، اقترَبـا وهمسَـا إليه بما همسَـا به إلـى صفية، فتمالَكَ جأشـه وهبَّ كعمـلاقٍ يتعرقلُ فـي ظلِّه، عادوا إلـى الكهفِ ركضًا لـم يوقفْهُ وقوعُ أحدِهـم بيـن حينٍ وآخَر، وقبضَ علاءُ علـى ذراعِ صفية لم يجِدْ فيه إلا خيالَ حياةٍ تأفُل وصدَى نبضٍ يتلاشـى، دار حولَ نفسـه وقلبَ الكهفَ رأسًـا على عقِب حتى دبَّـتْ الحياةُ في أوصالِها فغـاصَ في حضْنِها لا يستطيعُ النطقَ، مسحَتْ خدهُ بيدِها وغمغمَتْ:

- **«بيشوي ابننا».**

استدارَ إلى سـالم ومينا ينتفضانِ كعصفورَيْن يشويهما البرد، تمالَكَ مينا نفسَهُ وشهقَ من بين دموعه المتقطعة:

- **استيقظْنا فلم نجِده جوارَنا، بحثْنا حولَنا حتى رأينا في أفقِ البَحر الجنوبيِّ قاربًا يبتعد.**

فتحَتْ عيونَها بصعوبةٍ فقبَّلَها وتركَها تستريحُ.

خرجَ علاء وخلفَهُ مينا وسـالم يذرعونَ الشـاطئ، صَحباهُ حتى تعِبا فارتمَيا على الأرضِ وزادَ تعبُه فلم يقدِرْ على التوقفِ.

t.me/qurssan

- 11 -

لم يكُن ما يفعلُه الفتى الذي لم يعُد فتًى واضحًا، كان يطاردُ الكثيرَ مــن الأفكارِ التي تداعَتْ إلى ذهنه المثقَل، ولا أدري هل ســأظلمُهُ إنْ قلتُ إنها كلها أفكارٌ أنانيةٌ تدورُ حولَ ذاته لكنها كانت كذلك، والحقيقةُ أنَّهُ استعادَ كثيرًا مما حدثَ منه وله فلم يجِدْ نفسَهُ إلا ضحيةً لكثيرٍ من الأشــياءِ التي لا يمكــنُ هزيمتُها، وحين عدَّدَ خطاياهُ لــم يذكُرْ منها إلا خيانتــه لذكرى شــيخه وتخليه عن حبيبةِ طفولتِــه، وكلتاهما جريمتانِ معنويتــانِ فــي نظَره، أما ما كان يعنيه في الوقتِ الحاضرِ فهو ألا يكونَ قــد ارتكَبَ جريمــةَ قتلٍ في حقِّ بيشــوي وصفيــة، كان الفتى يتحركُ كبندولٍ مجنونٍ بحثًا عن مخرجٍ له من عقدةِ الذنبِ.

ولأننــا لا نريــدُ أنْ نُثْقِلَهُ لم نكشــف لــهُ عن أنَّ إحــدى جريمتَيْه المعنويتين تســبَّبَتْ في انتحارِ مريَم قبلَ أنْ يضعَ قدَمَهُ في الســيارة، وذلــك أنَّ الفتاةَ الحزينةَ لم تَكُنْ في سَــعْيِها للزواجِ منه مُخْلِصَةً لحُبِّها القديــمِ وذكرياتِ براءَتِها فقط، بل كانت تهرُبُ من فضيحةٍ لم تَثِقْ في غيره أنْ يُنقِذَها منها، الفتاةُ التي أســلمَتْ نفسَها لسواهُ وسترَتْها السماءُ فلــم تحملْ من سِــفاحِها كانت تتشــبثُ به كآخِرِ أملٍ يســتُرُ الشــرفَ المثقــوبَ، وحين قطَعَ بها لم تحتملْ فنحــرَتْ ذراعيْها، لكنا لا نريدُ أنْ نُحَمِّلَــهُ عبءَ الماضــي ولا أنْ نُلَوِّثَ ذكرَى حبيبتــه الأولى، يكفيه ثقلُ

جريمتَيْن في يومٍ واحدٍ، ومن الســخريةِ أنَّ الجرائمَ كلَّها لم يحملْ فيها سلاحًا، قتلَهم جميعًا بالتخلِّي.

عامــانِ مرَّا يا حزينُ على نجاتِك، تقلبْتَ فيهما بين الخواءِ والامتلاءِ، تغرفُ من الدنيا بملءِ كَفِّكَ وتغرفُ هيَ من عقلِكَ واتزانِك، قتلْتَ أقربَ النــاسِ إليــكَ لأنكَ لــم تحتمــلْ مَصيــرَك، طَمِعْتَ يــا أتعــسَ الناسِ، وأهلَكَكَ الطمعُ.

ماتــت صفيةُ بعد يومَيْن، ولعَنَ نفسَــهُ فأصابَتْــهُ اللعنةُ وخارَ عزمُهُ واكتسَتْ عيناهُ بغشاءٍ من العمَى لم يُمَكِّنْهُ من تمهيدِ قبرِها كما ينبغي، وصــامَ عن الــزادِ حتى ظــنَّ الأولادُ أنهُ لاحــقٌ بها وغصَّــتْ صحبتُهما بالحديــثِ عــن لحظةِ موتــه وترتيباتِ دفنــه وكيف يُسَــيِّران حياتَهما من بعده.

t.me/qurssan

- 12 -

أيــامٌ تمضي لا تعــرفُ هل تأخُذُ منــكَ أم تعطي، وحيــواتٌ تندلعُ وتنطفــئُ بلمحِ البصَر حتى لتعجزَ عن فهــمِ الحكمةِ وراءَ وجودِها من الأســاسِ، القسوةُ تغلِّفُكَ وتتغلغلُ فيكَ أيها القدَرُ المُصَوَّبُ إلى صدورِنا واللعنةُ هي جوهرُ كُلِّ شيءٍ.

اختبَأَ الجريحُ من قدَره خلفَ غلالةِ العمى والعجزِ، وسَهِرَ عليه الأولادُ الذين صاروا رجالًا بين ليلةٍ وضُحاها، يتعهدونهُ بالرعايةِ والمحبةِ عســى أنْ تــدَاوي المحبةُ جراحَهُ العميقــة، وكلما نادى الموتَ ومالَ إليه وقف الصبيان بينهما وطالباهُ بتعليمِهم وفتحوا معهُ مواضيعَ شتى، وكأنه طفلٌ تجذبُهُ اللعبةُ ويحبُّها فيشاركُهم فيها وتدِبُّ فيه الحياةُ شيئًا فشيئًا، لكنها حيــاةٌ أخــرى لم تُبْقِ من أثرِ الحيــاةِ القديمةِ إلا ابتســامةً بنصفِ وجهٍ مشلولٍ، ونيرانًا موقوتةً في انتظارِ ساعةِ وحدةٍ لتنفجرَ في الرمادِ، وتحولَ الفتى الذي لم يعُدْ فتًى إلى غريبٍ يُشْــبِهُ الغرباءَ الغامضينَ تتفجرُ من بين شفاهِهِم الحكمةُ ويعلوهم الغموضُ والأسى، أم تراها حقيقةُ الكونِ غامضةً وحزينةً تولَدُ حكمةُ فهمِها غامضةً مثلَها وحزينة.

على كُلِّ حالٍ تحســنَتِ الأحوالُ بفضلِ الصبيْن يتناوبانِ مجالســته وتمريضَه، ويقتسمان الزراعةَ وشئونَ الجزيرةِ بمهارةٍ طبَخَ هو مقاديرَها فيهما وأنضَجَتْها الأيام، شُفِيَ العليلُ من خيالاتِ الموتِ وبَقِيَ له العمَى ونصفُ جسدٍ يقاومُ الحركةَ، لكنهما احتفلا بخروجه من الكهفِ ووقوفه على عصا يتقوَّى بها وتأخذُ بخطاهُ إلى شاطئِ البحر، وقفَ مهزومًا على

أطرافِ عدُوهِ القديم يطاردُ أمواجَهُ بعينيه، ويأسَــى لحالِهما معًا القاتلُ والقتيلُ، يتنسَّــمُ رائحةَ صفية الأولى وهي تركُضُ إليه في ثيابِها المبتلةِ ورُوحِها الخفيفةِ.

أقبَلَ الليلُ ببرودةٍ تشــبِهُه والثلاثةُ جالســونَ يتأملونَ، ينظرونَ إلى ناحيةٍ واحدةٍ، لكنَّ كلًّا منهم يُبْصِرُ شيئًا مختلفًا، والصمتُ الكبيرُ يتحدثُ إلى المَدِّ والجزرِ كمَنْ يتبادلانِ تفاصيلَ حكايةٍ قديمةٍ، ثنى الأعمَى رقبَتَهُ في إشارةٍ إلى رفيقَيْه برغبةٍ في الحديثِ ولم ينتبِهْ أحدُهما إلا بعد عدةِ مراتٍ، لكنْ بدا كأنَّ الخرسَ الذي أصابَ الأعمَى ألقَى بظلاله الكابيةِ على الرفيقَيْن فازدرَدا ريقَهما ينتشلانِ حِسًّا غريقًا يُمْكِنُ أنْ يُكَوِّنَ حروفًا على قدْرِ اللحظة، وكالعادةِ تنهارُ الكلماتُ في حضرةِ الصمتِ الجليلِ وتتحولُ إلــى صورٍ كرتونيةٍ شــائهةٍ لا معنَى لها، فلا يجدُ ســالم ومينا إلا تربيتةً حانيةً علــى كتِفِ أبيهما وفخذه تحملُ معهــا آلافَ الكلماتِ الملفوفةِ بحزنٍ وحنانٍ.

- هــل تعرفان أنها المــرةُ الأولى التي أنتبهُ فيها أنَّ أحدَكما مســلمٌ والآخَر مسيحيّ.

تنهَّدَ ورفعَ وجهَهُ إلى البحرِ يستشرفُ الأفق:

- سيعودُ بيشوي، سيلتئمُ شملُنا مرةً أخرى لقد علَّمْتُكم جيدًا والبحرُ لم يقدِرْ عليكم قبلي ولن يغدرَ بأحدِكم وأنا موجودٌ.

عادَ الصمتُ يعبثُ بفستانِ نسمةٍ شاردة، فتحسَّسَ الهواءَ بيده.

- هيا بنا إلى الداخلِ، يبدو أنها ستمطرُ.

حينَ أدارَ ظهرهُ إلى البحرِ بدا غيرَ واثقٍ من أيِّ شــيءٍ، وأغلقوا بابَ الكهفِ وراءَهم.

t.me/qurssan

- 13 -

مــرتِ الأيامُ على الثلاثــةِ كصحراءَ لا تنتهي، يصحُــون فجرًا يضعونَ الطعــامَ في بؤجة ويســيرون إلى أرضِهم، ظلان صغيــران يتبعُهما ظلٌّ مترنحٌ من بعيد، كلما التفتوا ونادَوه أشــارَ إليهم أنْ يسبقوه حتى يصلَ وهــم قد شــرعوا في العملِ الــذي يقومونَ به، تعــوَّدُوا ألا يلتفتوا إلى كلماته التي ينطقُها بصوتٍ عالٍ، لكنها دائمًا تكونُ موجهةً إلى نفسِــه، صــرخَ فيهــم ذات صبــاح: « **كيــف فاتنــي أنَّ النبوةَ لا تأتــي إلا بعد الأربعين؟**». قالها وسقطَ على جانبه من الضحك وتتفجرُ بالدموعِ عيناهُ العمياوان، هزَّا أكتافَهما وضحِكا معه ثم عادا إلى عملهما بهمة، قبلَ أنْ تحتلَّ الشــمسُ كبدَ الســماء كانا يجمعان الخشــب، طفــلان لا يتجاوزُ أكبرُهم - وهو مينا - التاسعة، وسالم بالكادِ يخطو إلى الثامنةِ من عمره، لكنهمــا كانا يقومان بمــا يقومُ به الرجال، لم يكونــا واثقَيْن من معنى الجنونِ أو أنَّ ما بالأعمى هو جنونٌ أصلًا، لكنَّ شــيئًا داخلَهما كان يحنو عليــه ويدفعُهمــا أنْ يتركاه لعزلته المظلمة وكلماته الغامضة، شــيئًا ما داخلَهما كان يعرفُ متى ينخرطُ معهُ في حديثٍ ومتى لا يعبأُ به.

ســاروا عائدين إلى كهفِهم يَجْرون خلفَ بعضِهما ويلعبان بالحجارة وهو يتوكأُ على عصاهُ ويدندن، حتى وصلَ وهو رائقُ البال تشُــقُّ وجهه ابتسامةٌ ثابتة ويعلو عينيه صفاءٌ غريب. على الغداءِ أخبرَهم أنَّ عليهم

أنْ يخرجــوا إلــى البحــر كما خرج بيشــوي، لم يعــرفِ الصغيران: هل يجادلان الأعمى أم أنَّها إحدى شطحاته؟ أيقظَهما في عتمةِ الليلِ ومسحَ على رأســيهما، وقال: «**غدًا نبدأُ في بناءِ قارب**» ثم تركهما يعودان إلى النوم وخرجَ إلى شاطئِ البحرِ يناجي صفية ويندبُها أو هكذا كان يبدو.

اســتيقظا ليجداهُ واقفًا على بابِ الكهفِ وقد ارتدى سروالًا وصديريًّا مهترئًا واعتمَرَ قبعةً من الورق، بدا مضحِكًا ومســتحقًّا للشــفقة، لكنهما قامــا إليــه ومضَوْا جميعًا إلى الشــاطئِ البعيد يجمعون الأشــجارَ التي طرحَهــا البحــرُ على الشــاطئ، كانت المســافةُ بين الشــاطئين بعيدة قطعوها في ثلثي نهار، ولما وصلوا اســتراحوا وتناولوا لقمةً هنيئة حتى هبَّ الأعمى إلى العمل وبدا كأنّه يعرفُ ما يفعلُه فشــجعَهُم وانغمسوا في العملِ الشاق، يسحبون جريدَ وجذوعَ النخل والكافور ويُدحرجونها على الرمال إلى ســفحِ تلٍّ قريبٍ من الشــاطئ، وكلما كوَّموا جذعًا على آخَر ســألوه فأمرَهم أنْ يُكملوا وســارَ كلٌّ منهم في ناحية ليُحضِرَ مزيدًا من الأشــجار ويعودَ إلى الكومةِ التي ترتفعُ وتتمددُ يومًا بعد يوم، ناموا خلفَ تلِّ الرمل وســألاهُ كلَّ ليلةٍ متى يعودون إلى الكهفِ؟ فيشــيرُ إلى البحر وينام..

t.me/qurssan

الفصـل الثالـث

- 1 -

لم يرعبْني سوى النسيان، خفتُ منه كما لم أخَفْ، حتى من الموت، للمــوتِ رائحةٌ وثِقَل يفرضان وجوده ويحفظــان للراحلين ذكراهم، أما النســيانُ فخفيــفٌ كالغبار، صحراءُ مترامية لا ماءَ فيهــا ولا دليل، يُفقَدُ داخلها إلى الأبد.

كنــا واقفينَ لا نبرحُ مكانَنا الملعــون، لم أقدِرْ حينها على تحديدِ ما إذا كنــا وحدَنا المقيديــن والعالَمُ يدورُ ويهرولُ أمْ أننــا وحدنا الأحياء وبقيةُ العالَمِ عدَم، لكنني أخذْتُ المجازفة وألقيْتُ بنفسي في البحرِ مرةً أخرى هربًا من النســيان، لا أعرفُ هل بقِيَ في أبي عقلٌ ليسامحَني ولا أعرفُ هل تتذكرُني دموعُ أمي الآنَ أو شــوقُ إخوتي، لكنَّ كلَّ ما أعرفُه أنَّني تركتُهم خلفي والحالُ يســوء، حيــن أعطانا أبي ظهرهُ لمحْتُ طائرَ المــوتِ يرفرفُ فوقَ كتفِه، أو ربما هو طائــرُ الجنونِ كلاهما من نفسِ الفصيلة، وأيقنتُ من عبثيةِ البقاءِ على الجزيرة.

كانت أمي - التي لم تكن أمي - نائمة، ومينا وســالم يعبثان بخيوطِ النــوم، والكهفُ بطــنٌ تبتلعني ثم تقيئُني في منزلــقٍ دائريٍّ كالجحيم، قلــتُ لهما: «**ســنموتُ هنا واحــدًا وراءَ الآخَر، أولُ شــروطِ البقاءِ هو الهــروبُ مــن الموت وقد رأيتُه يحلقُ فوقنا اليوم، حين يأتي ســيلقانا مُقَيَّديــن إلى هذه الأرض ولن يجِدَ صعوبةً في الإجهازِ علينا، البحرُ لم يقتلْنا وسيقتلُنا السكون**». كانا قد ناما، وسالت على خدي دمعةٌ باردة.

t.me/qurssan

أكبُـرُ مينـا بثلاثةِ أعـوام وأكثرُ منهُ وعيًا بعشـرين، يتيمـان ولدَنا المجهـولُ ثم ألقانا على قارعةِ الطريقِ فانتشـلَتْنا يدُ الله، أتى مينا إلى الديرِ بعدي بثلاثِ سنوات، كنا نتعلمُ ونحفظُ الكتابَ المقدسَ والترانيم أولَ النهـار، ثم نمضي فـي خدمةِ الدير ونظافته آخِرَ اليوم، حتى زادتْ أعباءُ الخدمةِ فهجرْنا ساحةَ التعلُّم، ولم يبقَ لنا من الكتابِ المقدَّسِ إلا موعظـةُ الأحد نحضرُها علـى أطرافِ أصابعِنا ونهرعُ فـورَ انتهائِها إلى المكانسِ والدلاء.

قبـلَ الطوفان كنا في إرسـالية الديـر إلى قلايةِ الجبـل مع راعينا الشـماس صمويل الأعرج نمهدُ المكانَ لقداسةِ الرهبان الذين سيلحقون بنـا بعدَ يوم، كان رجـلًا صارمًا يعاملُنا كالخدم ويُحَمِّلُنـا مهامَّ ينوءُ بها كاهلُ الكبار ولا يمُدُّ يديه إلا فيما لا يمكنُنا إنجازه أو ما ينالُ من ورائه مدحًا وحظوة، ولأنَّ المسـيحيَّ الطيبَ لا يضِـنُّ بقواهُ على الرب كنتُ أعملُ كلَّ ما يُطلَبُ مني وأحملُ عن مينا ما يُثْقِلُه، صرنا أخوَيْن في الهم، تجمعُنا قسوةُ النهارِ ومَذَلَّةُ الليل.

أحبُّ أيامَ القلايةِ لأنها متنفسـي الوحيد من العامِ إلى العام، وأحبُّ الرهبـانَ لأنهـم يعرفونَ أسـماءَنا فلا يقولون إلا بيشـوي الطيب ومينا الطيب ولا يثقلوننا بخدمتِهم، يزورُ قداسـةُ الرهبانِ القلاية آخرَ نوفمبر من كلِّ عـام متبتلينَ منعزلين عن صخبِ الديرِ ومدنيته ويعودون إليه ليلـةَ الميلادِ في موكبٍ مهيبٍ، يسـتقبلُهُ رئيسُ الديرِ وأسـاقفتُه وأهلُ ديمانةَ وأنوارُها حتى البيوتُ والأشـجار، أخَّرُوا خروجَهُم تلك المرة حتى أولِ ديسـمبر، ولم نكَدْ نصِلُ إلى القلايـة حتى قامت رياحٌ لم أرَ مثلَها تُمْسِـكُ الرمالَ من قفاها فترفعُها وتطرحُهـا أرضًا في دواماتٍ مخيفة،

بسـرعةٍ أنزلْنـا الأمتعةَ وحقائـبَ الملابسِ وجوالَ الدقيـق والبطاطسَ والعدسَ والكيروسـين والزيت وانطلقَتْ العربة عائدةً إلى الدير، أغلَقْنا بابَ المبيتِ ونوافذه وشـرعْنا نُقَلِّبُ الحصيرَ ونكنُسُ الغبارَ ونرُشُّ الماءَ ونجربُ كلَّ لوازمِ الإضاءةِ والراحة، وكان علينا أنْ نكتشـفَ أقربَ مكانٍ نحملُ منهُ ماءَ الشربِ لكنْ حجبَتْنا العاصفة.

نمتُ ملتصقًـا بمينا نتدفأُ ببعضِنا مُنهَكَيْن حتى صحَوْنا فزِعَيْنِ على طرقاتِ الرعدِ وانهمارِ المطرِ الثقيل، بحثْنا عن الأعرج حتى وجدْناهُ على سـطحِ المبيتِ يتطلعُ إلى الأفقِ الغائمِ ويبرطم: «**كَكُلِّ عام غيرَ أنَّ في جعبتِهـا ثلوجًا، ورياحُها لا تبشـرُ بخير**». ضيَّقَ عينَيْـه القبيحتَين وزمَّ شفتَيْه فصار أقبح.

قضينـا اليومَ وليلتَهُ نتنقلُ من ركنٍ إلـى آخَر ونجددُ دماءَنا باللعبِ والركـض، ينهرُنا الأعرجُ من تحتِ طبقاتِ الأغطيـة فنتمادى، يقولُ «**يا أولادَ الكلب يا مساخيط لو كنتُ منكم لم أبرحِ الفِراش**». ونقولُ: «**أنتَ لا تبرحُ الفِراشَ فعلًا**». فيصبُّ علينا سـبابَهُ ولعناته فنُضَيِّقُ عيونَنا ونزُمُّ شفاهَنا كما يفعل ولا ينتهي الجدالُ إلا بحجرٍ أو حذاءٍ مقذوفٍ نتفاداه ونجري كأنَّنا على الشـاطئ، الشـاطئُ الذي قتلَ والدِيَّ في الطريقِ إليه فـي الحادثةِ التي أتَتْ بي إلى الديـر، ينهمرُ المطرُ وتتحولُ نقاطُهُ إلى كابـوشٍ كبيرٍ من المـاء والثلج وينكمشُ القنفذُ الأعـرجُ تحتَ أغطيته وتبدأُ البرودةُ في ضربِنا بخناجرِها الحادة فنلتصقُ ببعضِنا في الركنِ في رداءٍ من الخوفِ والحنين، ومَن للحنينِ مثلُ الشتاء!

كان مينا ابنًا لبائعةٍ بسيطة مقطوعة من شجرة، مات زوجُها ورعَتْها الكنيسـةُ حتى دهسَـتْها سـيارةُ ابن نائبِ مجلسِ الشـعب في حادثةٍ

t.me/qurssan

شــهيرة، وتمَّتْ ترضيةُ الكنيســة وشعبِها في بلقاس وأُرْسِلَ مينا إلى دير البراري، ليَخِفَّ حملُهُ عن الجميع، كان يبكي كثيرًا ويُنَغِّصُ عليَّ صحوي ومنامــي طالبًا أمَّه، وكنــتُ أضربُهُ حتى يتعالَى صراخُنــا فيأتينا الراعي بخيزرانتــه القصيرة نــذوقُ منها مــا يكوينا ويكتمنا، ثــم حنوتُ عليه وشــعرتُ به مثلي غريبًا وحيدًا لا يملكُ وراءَ ظهره إلا ذكرياتٍ كالثلجِ لا تقيم.

أقبــلَ الصباحُ وقد زحَفْنا في برودةِ الليلِ تحتَ غطاءِ الراعي الأعرج، أيقظْتُ مينا وأطلَلْنا على تعريشــةِ المبيتِ فوجدناها قد انهدَّتْ وامتلأَ المبيــتُ بالماءِ والثلــج، لم نحتملِ البــرودةَ والثلوج فدخلْنــا وأيقظْنا صمويل يلعنُ ويسُبُّ، خرَجَ بنفسه ينظُرُ صِدْقَ ما نقول، ثم عاد يغمغمُ ويضــربُ كفًّا بكف، أمرَنــا أنْ نجمعَ الحصيرَ والأمتعــةَ في ركنِ القلاية ونفرشَ عليها غطاءً من البلاســتيك ونُحْكِمَ جوانبَهُ بالحجارة، لما انتهينا فاجأَنا بأننا ســنعودُ إلــى الدير، كان الديرُ بعيدًا ومنظــرُ الرياحِ والثلجِ مخيفًا، لكنا تبعناهُ إلى الخلاء.

- 2 -

كان صمويــل غبيًّا وليس في أيدينا ســلطةُ معارضتِه، فخرجَ ثلاثتُنا إلى الخلاءِ المفتوحِ تحتَ رحمةِ العاصفةِ التي لم نشــهدْ لها مثيلًا، ولم تُخَيِّبِ الســماءُ ظنَّنا، فأرســلَتْ على رءوســنا من خيراتها ما نعجزُ عن احتماله ولم نتمكنْ من الســيرِ بضعةَ أمتارٍ نسيرُ خطوةً وننزلقُ أخرى علــى طبقاتِ الثلجِ التي تختلطُ بالرمال حتى هرعْنا إلى الاختباءِ تحتَ تعريشةٍ حملَتْها عنَّا الرياحُ بعد دقائق، وأُسْقِطَ في يدي الأعرج، وقالَ: «**لــو ظلَلْنــا مكاننا**»، ولم نكُنْ نملكُ رفاهيةَ الســخريةِ منهُ فنظرْنا إلى بعضِنــا في هلعٍ لم تمهِلْهُ الســماءُ حتى صدمَنا قالــبُ صفيحٍ فخرَجْنا ننظــرُ فــي كلِّ الجهاتِ بحثًا عن ســيارةٍ شــاردة تحملُنا إلــى الطريقِ السريع، لكنْ لم يكُنْ ثَمَّ إلا المطرُ والرياح، أطلَقَ الراعي صمويل ساقَهُ العرجــاءَ إلــى الريح وتركَنــا محاصَرَيْن بخوفِنا الذي سَــمَّرَ أقدامَنا في الرمــال ولم يلتفِــتْ مرةً ليبحثَ عنــا بجانبِه، أدركْــتُ وأدركَ مينا أننا وحدَنــا فــي مواجهــةِ العالَــم فغلبَنا البــكاء.

لــم نكُنْ بَعْدُ على علمٍ بمعنى المعجزة لكنَّ صورةَ العذراءِ المُطْرِقة تمُدُّ لنا ذراعَيْها على مَدِّ البصَر لم تكُنْ أقلَّ من معجزة، أشَرْنا إليها معًا وقصدْناهــا دونما اتفاقٍ في لحظةٍ واحدة، حين وصلْنا إلى موضِعِها لم نجِدْ شــيئًا لكنَّ تبةً خرسانيةً في بطنِ الجبل لاحتْ لنا ولم أعرِفْ كيف

t.me/qurssan

جاءتْنا السـرعةُ التي وصَلْنا بها إليها، والتقينا سـالِمًا يصرخُ تحت إحدى البقـراتِ النافقـة، وكان عرباويًّا مـن الرُّحَّلِ الذين ينتقلون بمواشـيهم وغنمِهم بين الأراضي الطينيةِ والرمليةِ يؤجرونَ البرسـيمَ والبنجر والذرة ليطعمـوه قطعانَهم، ثم يبيتون آخِرَ النهارِ في تلكَ التبةِ القديمة والتي أخبرنـي الأب يوسـف أنهـا من بقايا الحـربِ القديمة، كانـت موضِعًا للمدافعِ التي تصطادُ طائراتِ اليهود إذا حامتْ قربَ السـاحل، سحَبْتُه ومينـا مـن تحتِها بقوةِ العـذراءِ ودخلْنا إلى التبةِ التـي غَصَّتْ بالأبقارِ والجامـوسِ النافق وثلاثةٍ مـن الموتى لدغَهُم البردُ على ما يبدو، ويبدو أيضًا أنَّ دفءَ الحيوانِ الرابضِ فوقَ الطفلِ ذي السـنواتِ الخمسِ هو ما أبقاهُ حيًّا وقال بلكنته المُعوَجَّة: «**الغَنَمَات فرَّتْ**». أحكَمْنا إغلاقَ فتحاتِ التبة، وكنا نصعَدُ إليها على جثثِ الحيوانات ونتعاملُ مع الموتِ المحيقِ بنا كأنهُ لعبةٌ سخيفةٌ ستنفضُّ في أيِّ وقت ونعودُ إلى بيوتِنا بغنيمةٍ من البِلْي والبهجة.

كان العربُ على ما يبدو يهتمونَ بالتبةِ ويزودونَها بلوازمِ بقائِهم فيها لأيـام من طعـامٍ وآنيةٍ وبطاطيـن ومصابيحِ غاز، واستكشَـفْنا كلَّ ذلك تحسـبًا للأيامِ التي ستحبسُنا فيها، سـألتُ سالمًا عن الموتى فكانوا أباه وعمَّيْه أخبرْتُهُ أنَّ الخروجَ خطر ودفنَهما سـيكونَ صعبًا وبقاؤهما معنا ومـع كلِّ هذه الحيوانات النافقة سـيصيبُنا بالمرَض ويقتلُنا، اتفقْنا على تجميعِ بعضِ الأخشاب وصبَبْنا عليها الجاز من أحدِ الجراكنِ الموجودة، وسحبناهمْ وسطَ الأخشابِ وأشعلْنا فيهم النار، لم أعرِفْ غيرَ أنْ ربعتُ ذراعيَّ ورسـمتُ الصليبَ ودعـوتُ لهما بالدفءِ الـذي أفقدَهُم غيابُه

الحيــاة ثم مدَدْتُ يدي أتدفــأُ بالنارِ والدخان وحــذا الصغيران حذوي وأنعَشَتْنا رائحةُ لحمِهم المشويّ فجرى ريقُنا.

مضَتْ الســاعاتُ ثقيلةً متخمَةً بالملل، تحوَّلَتِ التبةُ الخرســانيةُ إلى ثلاجةٍ كبيرةٍ ونحنُ داخلَها نســابقُ ظــلَّ التجَمُّد المرعب، كانت مداخلُ التبةِ ونوافذُها قد صارت في مستوى الماء ولم نبقِ إلا فرجةً في سقفِ أحــدِ الأركان مفتوحةً وأغلقناها ببطانةٍ داخليةٍ مثقوبة لتُدخِلَ لنا الهواء ووضعنــا تحتها إناءً يجمــعُ قطراتِ الماءِ ونُدَفَ الثلــجِ وبدا كأنَّ الحالَ يمكنُ أنْ يدومَ إلى آخِرِ العُمر. نتحلقُ النارَ ونلقي عليها جازًا وأخشــابًا وننفــخُ فيها من روحِنا لنبقيَها مشــتعلةً وأكلْنا من الأبقارِ التي حفِظَتْها البرودةُ طازجةً لأيام ولولا ما أصابَ اللحمَ من زرقةٍ مُقبِضةٍ ونفاذِ رائحة بعد أيام لأكلْنا منه لشهور، لكنَّ الرائحةَ أجبرَتْنا على حرقِ الثروةِ بكاملِها أو هكــذا هيَّأَ لنا عقلُنا الصغير وربما كانــت الحقيقةُ أنَّ الوفرةَ والملَلَ أصابَانــا باللوثةِ والنــزَق فوضَعْنا أنفسَــنا على مشــارفِ الخطر بإعدامِ الوســيلةِ الوحيدةِ لوقايتِنا من المــوتِ جوعًا ولم ندركْ خطورةَ الأمرِ إلا حين حزَّمَ الجوعُ بطونَنا ولاحَ شبحُ العوَز.

t.me/qurssan

- 3 -

للقدَرِ تصريفٌ غريب وللربِّ طرُقٌ غامضة في تسـييرِ الأمور، ونحنُ الصغارَ لا ترى عقولُنا من الكونِ إلا بقدْرِ ارتفاعِ رءوسـنا ولا نُدرِكُ إلا ما تتمكنُ حواسُّـنا من تأويلِه، ويفعلُ الربُّ بنزقِ الصغارِ ما يفعلُ بحكمةِ الكِبار، لا تهمُّ الوسـيلةُ فالمقدرةُ واحدة والإرادةُ إلهية، وكانَ آدَمُ ملاكًا طفلًا نورانيَّ الجسَـدِ أبيضَ العقل شـفيفَ الروح يقطعُ الجنةَ في لمْحِ البصَر وينالُ من النعيمِ ما يَسْلُبُ العقلَ حتى أصابَهُ الكدَرُ والسأم، ورأى الربُّ ذلكَ غيرَ حسَن.

اطَّلَعَ الربُّ الإلهُ على الكونِ فرأى كرةً زرقاءَ صغيرة تدورُ حولَ نفسِها بينما يدورُ الكونُ كلُّهُ حولَ عرشِـه، فنزلَ من على عرشِـهِ البعيدِ وقبضَ من ترابِ الكرةِ الزرقاءِ قبضَتَين ومن سـحابِها سحابتَيْن وعجَنَ إحداهما بيـده اليمنى وعجَنَ الأخرى بفعلِ كُنْ ثمَّ أمَـرَ آدَمَ باختيارِ أيِّهما يأكُلُ فقضَـمَ قضمةً من التي صنعَتْها الإرادةُ عافَتْها نفسُـهُ وبصَقَ في منازلِ النور في السموات... أصابَهُ الاختيار ورأى الربُّ ذلكَ غيرَ حسَن.

أمَرَ الربُّ عجينةَ الطين التي سـواها بيديه فاستوَتْ كائنًا حيًّا تنشَقُّ لـه أذنان تسـمعان وفجوتـان تبصران وفتحتان تشُـمَّان وفـمٌ يتلمظُ ويتلاعبُ كالماء وغطى جذعَهُ بالتلالِ والهضاب وشـدَّ من جانبيه أربعةَ أغصان حفرَ بين اثنين منهما حفرةً كالسحرِ وقالَ: كوني أنثى، فمَدَّ آدَمُ يديـهِ إلى التلِّ والحفرة، وقـال: اجعلني مثلها، قالَ: بل تذوقُ عسـلَها

وتركُــضُ خلفَها حتى يصيبَكَ الزمن، قالَ فليكُــنْ... أصابَتْهُ الغواية فرأى الربُّ ذلك غيرَ حسَن وقالَ: كُن إنسانًا.

حملَهــا على بطنه وملأَ حفرتَها بلحمه وحملَتْهُ على بطنِها وضغطَتْ بجدرانِها سيفَه، فضجَّتِ الجنةُ بالشبَق والتهى حراسُها عنها حتى سكنَتْها الحياتُ، ولازمَتْهما حتى ائتنسَــا بها فأخذَتْهُما إلى ظلِّ الشجرةِ المحرمة فنفخَ الموضعُ فيهما لذةً لا تنتهي ورعشةً لا تُقاوَم، وقعَ آدَمُ ودارَ حولَ نفسه وحولَ فتاته فطَمِعَ أنْ يستبقي لذةَ الشجرةِ في دمائه فقطَفَ من تفاحِها ورأى الربُّ ذلك غيرَ حسَن.

هبطَا إلى الكرةِ الزرقاءِ التي تدورُ حولَ نفسِــها ويُســكَنُ ظاهرُها لا باطنُها، هبطا سجينَيْ فراغِها المطبق وملعونَيْن بعُمرِها القصيرِ ومصيرِها المُرّ ...ســكَتُّ، ورفيقاي فاغران الأفواهَ يستزيدان مِن حَكْيِي ويتلهيان به عــن الجــوع الذي يتآكلُهمــا، لكنْ قرصَنــي الجوعُ فكفَفْــتُ عن الكلامِ ووعدتُهما بإكمالِ الحكايةِ بعدَ أنْ نعرفَ ماذا سنفعلُ للخروجِ من أزمتِنا الطاحنة، بكى ســالم وقلَّبَ مينا كفَّيْه عاجزًا عن الإجابة، وبحثْتُ داخلي فلم أجِدْ إلا ظلمةً بيضاءَ لا تُمَرِّرُ شــعاعًا واحدًا لكنْ ســيطَرَ على عقلي فعــلُ الراعي صموئيل بنا وبنفســه حين ضحَّى بأمــانِ القلايةِ إلى رعبِ الخــلاء، ومَنْ يــدري ربما لولا فعلُهُ ذلك لأهلكَنا البردُ وجرفَنا الماء، ربما فعلُــهُ الأرعــنُ ذاكَ هو ما أبقانا أحياءَ حتــى الآن وإنْ كان التصرفُ ضدّ المنطــقِ فأيُّ شــيءٍ في الكونِ الآنَ يعملُ بالمنطــقِ حتى يكونَ الموتُ والنجاةُ بالمنطق!

عزمــتُ أمــري على الخــروجِ من التبــة ولم أدْرِ كيــف أفعلُ، قلتُ أسألُهما ويكونُ لما يضيفانه ثمرة أو لنقاشِنا ما يفتحُه من أبواب ولكني

t.me/qurssan

تراجعتُ خائفًا من ترددِهما وعدمِ استيعابِهما للأمر، احتلْتُ لهما حتى أخذَهُمُ النعاسُ في حِجْره ثم صعدتُ إلى نافذةٍ قريبةٍ فعلَّقْتُ مزلاجَها على شعرة، ودلقْتُ كيروسين على كلِّ شيءٍ في التبةِ إلا جدارَ تلك النافذة، وفتحْتُ للنارِ طريقًا تتسحبُ منهُ إلى الكيروسين، وحشرْتُ نفسي بينهما كأنني نائم حتى يمكنَني الإمساكُ بذراعِهما حين تحينُ اللحظةُ المناسبة، وراقبْتُ النيرانَ حتى هبَّ عنفوانُها فصرخْتُ فيهما، وجذبتُهما من ذراعيْهما إلى النافذة، ألجمَهُما الرعبُ من النارِ وشلَّ تفكيرَهما فأسلما لي القياد، وخرَجْنا إلى العالَمِ الذي كان غيرَ العالَم.

كان ما قضيناهُ في التبةِ بضعَة عشرَ يومًا، لم تكُفَّ خلالَها أصواتُ الريحِ والمطَر، وحين لاحَظْنا بلوغَ الماءِ مستوى نوافذِ التبة وسطحَها قلنا: إنه ماءُ المطَر، واكتشَفْنا أنَّ الماءَ الذي كان يحاصرُنا من كلِّ مكانٍ يحملُ ملوحةَ البحرِ وامتداده، والتبةُ التي أنقذَتْنا كلَّ تلكَ الأيامِ كان الماءُ يطفحُ منها تحتَ أقدامِنا في بضعِ دقائقَ تُركَتْ نافذتُها مفتوحة، أيامًا طويلة لم يكُنْ بيننا وبين الغرقِ في قاعِ البحرِ إلا شرخٌ في لوحِ خشَب أو مسمارٌ صدئ، لكنَّ ذلكَ كلَّهُ خلفَنا الآن أو تحت أقدامِنا ولم يبقَ لنا إلا أفقٌ ممتدٌ من الماءِ الهائج وسماءٌ كالسقفِ المثقوبِ تنزُّ بمطرٍ خفيف وتنشعُّ بالرطوبة والفراغ، وبدَوْنا صغارًا أكثرَ مما ينبغي، نمالًا مشدوهةً على أعتابِ مستقبَلٍ غامض ألجمَهُم جلالُ المفاجأةِ وهَوْلُ الصدمة فلم يتمكنْ حتى الخوفُ من خَدْشِهم، ويخضَعُ الخوفُ حين تخلعُ الدهشةُ نقابَها، بل يخضعُ كلُّ شيءٍ في الحقيقة، لا شيءَ كالدهشة سيدةِ المشاعرِ البشريةِ وملكتِها المتوجة، ولم نكُنْ في وقفتِنا تلكَ إلا دهشةً خالصة، تلبَّسَتْ ثلاثةَ أجسادٍ آدميةٍ نحيلةٍ تُطِلُّ منها على صورةٍ مُكبَّرَةٍ لوجهِها وتتغزلُ في جمالِها الوحشيِّ.

- 4 -

وكانَ طفلٌ آخَرُ يسكُنُ المدى الآخَرَ للسماء لم يكُنْ تسمَّى بعد ولم يكُنْ لوجوده صدى ولا أعباء إلا كملاكٍ طوافٍ يُرَوِّعُ فَراشَ الجنةِ ليَهْجُرَ كَسَــلَ الغصونِ ويُلَوِّن أجواءَ الجنةِ بأجنحته المتموجة، رأى آدَمَ البشريَّ يحتضنُ أنثاهُ البشرية ويتلويان في شبقٍ تُشْعِلُه ظلالُ التفاح وحين وقعَ في قلبه ما رأى قالَ: أريدُها لي نتلوى في ظلالِ التفاح، فكشَفَ سترَهُما للمخلوقاتِ النورانية، وأحدَثَ في الســماءِ لغَطًا شوهَ صمتَها المقدَّس... ورأى الربُّ ذلكَ غيرَ حســن. يا مينا ويا ســالم، ولكنَّ الحكاياتِ لا تشُقُّ بحرًا والانتظارَ لا يستنقِذُ حياةً يقبضُ عليها الموتُ بكفّه الفولاذية.

كان المطــرُ خفيفًا يتقطَّرُ على اســتحياء، والرياحُ تعبثُ بملابسِــنا وشــعرِنا الطويل، كنَسْــتُ بناظرَيَّ الأفق جيئةً وذهابًــا، بحثًا عن حركةٍ تجرحُ السكونَ أو سوادٍ يُحَطِّمُ سطوةَ الأزرقِ القاسي، وفي جسدي ألفُ خنجــرٍ وخنجر، حتى ظننتُ أنني لمحتُ ظلالًا بعيدة، دقَّقْتُ النظرَ في ذاتِ الموضــع فخذلَتْني عيني وقلتُ: ســرابُ البحر، لكنَّ الظلالَ عادتْ تخايلُني بين ظهورٍ وغياب، أشــرْتُ إلى الموضِعِ أســتعينُ بنظَرِ رفيقيَّ وحملتُهمــا على كتفي؛ مينا فوقي وســالمٌ فوقَه، فأكَّدَ العرباويُّ أنَّ ثمةَ ظــلًّا كبيــرًا كأنهُ أرضٌ ذاتُ شــجر، وقفزْنا من فرحتِنــا غيرَ واضعين في حسبانِنا أنَّني وحدي أستطيعُ السباحة.

t.me/qurssan

أنعَشَــنا الســرابُ المواجهُ لنا وظللنا ندورُ ونقفزُ بحثًا عن حل، عن طريقةٍ للوصولِ إليه، حتى تعِبْنا وجلسْنا مكانَنا نتأملُ وجوهَنا التي بدَتْ في الماءِ أكبرَ بسنواتٍ مما كانت عليه، ثلاثةُ أطفالٍ أتَوْا من ثلاثِ جهاتٍ ليلتقوا في نقطةٍ خرســانيةٍ لا تتجاوزُ مترين في مترين، يتكسَّــرُ عليها المــوجُ وإنْ كان لا يغمُرُها كأنها طفلٌ مربوطٌ ليُعاقَب وتدورُ أمُّهُ حولَهُ بالعصا، كأنها لحظةُ فرحٍ تنتشــلُ نفسَــها من محيطٍ مــن الحزن، تقفزُ وتركُض حتى تضيقَ عليها الحلقةُ فلا تملكُ إلا القفزَ العموديَّ في الهواءِ لتُعلِنَ عن نفسِــها وتُطَمْئِنَ خاطرَها، لكنَّ الحصارَ قاسٍ والســجنَ شاسعٌ ومُترَامٍ وما أشــقَّ أنْ يكونَ العالَــمُ أمامَك ولكنكَ مُكبَّلُ القدمَين، وقلتُ لنفســي أتركُهما لأصلَ إلى ظلِّ الأرضِ المقابل ثم أعودُ بقاربٍ يحملُهما معي، وقلتُ لنفســي: انجُ بنفسِكَ فالطوفانُ جاءَ وليسَ من الحكمةِ في الطوفــانِ شــبكُ الأيدي، قفــزتُ إلى المــاءِ البارد وغطســتُ متجاهلًا نداءاتِهما الممزوجةَ بالهلعِ والبكاء ودُرْتُ حولَ طللِ التبةِ الغارقة وهما يبحثــان عني فــي الناحيةِ الأخــرى، رأيتُهما من الخلــفِ يتطلعان إليَّ ويتعلقان بي، طيفان يُجَمِّلان الصورةَ الباهتةَ للعالَم وكانت صورَتي في المــاءِ قبيحــةً ممتلئةً بالبثورِ فخِفْتُ من نفســي وكان المــاءُ باردًا حدَّ التجمُّد فخِفْتُ من الماء ونادیتُهما فالتفتا وابتسمت، رأيتُ في عيونِهما أنني لن أستطيعَ تركَهما خلفي مهما كانت مُغرِياتُ النجاة، وعرفتُ أنَّنا ســنموتُ معًا، هنا على تلــكَ النقطةِ الغارقةِ في الفضــاء أو هناكَ في الطريقِ إلى ذلك الظلِّ البعيد وإذا كُتِبَتْ لنا النجاةُ فستكونُ نجاتَنا معًا في أيِّ موضعٍ وأيِّ زمن، وخبطَ شيءٌ في رِجْلي فقفزْتُ إلى سطحِ التبةِ

شـاحبًا ومرتعشًـا كأنَّ دماءَ جسـدي كلها هربَتْ من موضـعِ الخبطةِ في قدمي.

تحفـزَ ثلاثتُنا وتملكَنا الرعبُ فتحولَتْ أجسـادُنا إلى عيونٍ متسـعةٍ ترقُبُ حركةَ الماءِ وتمسـحُ سـطحَهُ في كلِّ اتجاه، ثلاثةُ أيامٍ من الجوعِ وعمـرٌ من القهرِ تذوبُ كلُّها في لحظةِ رُعْبٍ كبيرة، كحبةِ مِلْحٍ تقعُ في نهـرٍ جارٍ، تلاصَقْنا كلٌّ في ظهرِ الآخَر يمسِـكُ بإحـدى يدَيْهِ يده ويترُكُ الأخـرى حرةً يرفعُها كحاجـزٍ فوقَ عينه يحجبُ الضـوءَ لتقومَ بوظيفةٍ أفضَـل، مضَتْ الثواني والدقائقُ ثقيلـةً صاخبة، ثم خبا تحفُّزُنا وارتخَتْ أوصالُنا فجلَسْـنا صامتينَ نُقلِّبُ أبصارَنا بين الماءِ والسماءِ ونخرقُ البحرَ بنظراتِنا النابشـة، حتى أتَتْ المفاجأَةُ من حيثُ لم نحتسِـبْ، لم تكُنْ عيونُنـا ما اكتشـفَتْها، كان صوتًا التقطَتْهُ آذانُنـا مكتومًا قادمًا من عمقِ الماء يتردّدُ على فتراتٍ كأنه مَوْجٌ يتعاهدُ الشاطئ.

التقَـتْ عيونُنا لكنها لم تُفْصِحْ عن شـيء، واسـتجمَعْتُ شـجاعتي فنزلتُ الماءَ من الناحيةِ الأخرى وغطسْتُ دائرًا حول التبة وحولَ عيونِ رفيقـيَّ الذاهلَين وغطسْـتُ وصعـدتُ أكثرَ من مـرة، وكانا يهللان لي ويشـجعانني على الخروجِ من الماء، لكنَّ ما رأيتُهُ هداني إلى فكرةٍ قد تكـونُ ملاذَنـا الوحيد، كانت ثلاجـةً معلّقةً في سلسـلةٍ حديدية كلما حركَتْها الأمواجُ ابتعدَتْ بقدرِ ما يسمحُ طولُ السلسلة ثم عادت تصطدمُ بجدارِ التبةِ تحتَ الماء فتُحْدِثُ الصوتَ الذي سمعناه، وكانت السلسلةُ هـي ما لمسَ قدمـي تحت الماءِ وأرعبَني، حاولـتُ أنْ أصلَ إلى نهايةِ السلسـلةِ المختفيـة تحـتَ ركامٍ من الأشـياءِ الغارقة لكننـي لم أفلحْ

t.me/qurssan

فقطمْــتُ القطعةَ التي تتصلُ بالسلســلة في ظهرِ الثلاجــة بثنيِها عدةَ مــرات، ولــم يكُنْ الأمرُ ســريعًا كما هُيِّــئَ لي في بدايتــه بل صعدتُ وغطسْتُ في الماءِ أكثرَ من ثلاثين مرةً قبلَ أنْ أتمكنَ من تحريرِ الثلاجةِ وجذبِها معي إلى السطح، لم يفهم مينا وسالم في البداية ما كنتُ أفعلُ ولم يخفيا دهشتَهما حين رأيا الثلاجةَ في يدي،لكني طلبتُ مساعدتَهما في رفعِها إلى سطحِ التبةِ وساعداني، فتحناها لنجدَ في أحدِ أدراجِها ماءً وطعامًا، لم نتوقفْ لنتأكدَ من سلامتِه، غذاءٌ فاسدٌ، تقيءُ بعضَهُ خيرٌ مِن لا غذاءَ على الإطلاق، ولكنَّ ثمارَ الطماطم والفاكهة كانت سليمة وأتيْنا علــى كلِّ ما فيها، احتفَظْتُ بالماءِ وأفرغْــتُ الثلاجةَ من كلِّ ما فيها ثم خلعتُ بابَها بعد مُحايلةٍ ونصَبٍ، وقلتُ: «**هذا قاربُ النجاة**». ألقينا بها في الماءِ ونزلتُ فثبَّتُّها لهما حتى ركِبَا وأنا أســبحُ بجانبِها ســاحبًا إياها على ســطحِ الماءِ الهادئِ متطلعًا إلى الســرابِ الأسودِ الذي يطبعُ على الكونِ الأزرقِ لطخةً ســوداءَ هي الجمالُ والأمــل، وكنتُ إذا تعبتُ من السباحةِ صعدتُ فشاركتُهما القاربَ وجدَّفْتُ بذراعيَّ اللذين استبدلتُهما بلوحٍ خشــبيٍّ التقيناهُ في رحلتِنا كما التقيْنا أمتعةً وأشــياءَ عائمة رافقَنا بعضُهــا وتخليْنــا عن أخرى ولم يكُنْ البحرُ بخيــلًا، وكانت الرحلةُ أطولَ مما تخيلْنا.

لــم تكَدْ تظهرُ لنا تفاصيلُ الظلِّ المقابلِ حتى هاجَ البحرُ وكادَ يفتكُ بنا فتخليْنا عن كلِّ ما معنا من أشــياءَ عازميــن على النجاةِ خِفافًا، لكنَّ الأمــواجَ أخذَتْنا وردَّتْنا، وكادَ موضعُ الأرضِ البعيــدةِ يتوهُ مِنَّا لولا عنايةُ الربِّ وحفظُ القديســين الراعين ببركةِ المســيح، وأدرَكْنا الشــاطئَ بعدَ

عشــرينَ يومًا أو أكثر في البحرِ، والتقينا علاء الذي توقفَ يفحصُنا كأنَّا خيالٌ أو أشــباح، ولم يمُرّ يومٌ حتى أرسَلَ الربُّ صفيةَ وصارا لنا أمًّا وأبا، حتــى يومَ هجرَنــا أبي ورأيتُ طائرَ الموتِ يجثــمُ على الجزيرة، عرفْتُ أنهم في حاجةٍ إلى إنقاذ، وأنني ســأعودُ ذاتَ يومٍ بأملٍ جديد في أرضٍ لا يخنقُها البحرُ من كلِّ مكان. أصلحتُ بقايا قاربٍ قديم وألقيتُ بنفسي بيــن أحضــانِ البحرِ الذي لــم يَخُنِّي من قبلُ، خائفًا مــن كلِّ ما خلفي وخائفًا عليهم، أحملُ في يدي مجدافًا مرتعشًــا، وفي قلبي تصميمٌ على الوصولِ إلى شــيءٍ لا أعرفُه لكنَّهُ يَشِــفُّ فتلوحُ من ورائه بهجةُ العودة وحلاوةُ اللقاء.

t.me/qurssan

- 5 -

لا أدري كم عدد المراتِ التي أدَرْتُ فيها القاربَ لأعودَ إليهم شـاعرًا بالنذالةِ والخِسَّـة، وتخيلْتُ أنني أرتمي في أحضانِهم معتذِرًا عن طيشِ التخلي عنهم، لكنَّ لذةَ الإبحارِ ومتعةَ الإغراقِ في المجهولِ لم تترُكْ لي فرصـةً للتراجـع، ودان لـي البحرُ شـهرًا يتلاعبُ بقاربـي كأمٍّ تهزُّ مهدَ وليدِها، رحلَ الشتاءُ الذي خلَّفَ الطوفانَ والخراب، وأقبلَ ربيعُ النسائمِ يُسَـوِّي صفحةَ الماءِ بخفةٍ ونعومة، ويُحَـرِّكُ آثارَ المُدُنِ والقرى الغارقة فتطفو وفيها ما يحفظُ الحياةَ ويزيدُ رفاهيةَ الرحلة.

بعـدَ مرورِ شـهرٍ وعدةِ أيامٍ مـن الإبحارِ في خطٍّ مسـتقيمٍ باتجاهِ الجنـوب لاحَ لي أخيرًا طيفٌ بعيد، نظرْتُ خلفي فلم أجِدْ أثرًا للجزيرة، بـكلِّ قوتي جدَّفْتُ وانزلَقَ القاربُ علـى جلدِ البحرِ الناعمِ كأنه يدغدغُ العمـلاقَ الرابضَ فـي صفحةِ المدى، وكلما ترسَّـخَتْ ملامحُ الشـاطئِ المقتربِ وجدتُ في نفسـي قوةً أضعافَ ما أملك، حتى كان بيني وبين الرمالِ عدةُ أمتارٍ فقفزتُ في الماءِ عائمًا تلك الأمتارَ وساحبًا قاربي خلفي.

مـاذا نملكُ مـن العالَمِ غير حَيِّزِ أجسـادِنا الصغير وقليل من حريةِ الخيالِ تعطينا حيزًا أكبرَ قليلًا؟ وماذا نخشى من العالَمِ أكثرَ من إغماضةٍ أبدية وعدمٍ يُلقي بنا في مهاوي النسـيان؟ وماذا تفعلُ بنا الأيامُ أقسـى من عزلةٍ وخيبةِ أمل؟!

كانت جزيرةً أخرى قاحلةً وســاكنة، وخلفَها لا أرضَ ولا ســماء، فقط بحــرٌ مترامٍ وخيبةُ أملٍ ثقيلة، لم أفهَــمْ، إذا كانت نهايةُ العالَمِ كما ظنَّ علاء في مرحلةٍ ما، فما معنى بقائِنا بعد فناءِ العالَم؟ لماذا نحنُ بالذات؟ وإذا كان خمســةٌ في أماكنَ مختلفة قد استطاعوا التغلبَ على الطوفانِ ومراوغــةَ الموت، فلماذا لا يكونُ لغيرِهم نفسُ المصير؟ ونمتُ مكدودًا خائرَ العزم أتنفسُ وأنظرُ إلى العالَمِ من ثقبِ إبرة.

اثنا عشَــرَ عامًا قضيتُها في الحياة، لم أهنأْ فيها إلا في نصفِها الأول في كنــفِ والدَيّ الذي لا أذكُرُ منهُ إلا وميضًا خافتًا، والعامَين الأخيرَيْن في كنَفِ أبويَّ علاء وصفية، لم أكُنْ قادرًا طوالَ صحبتِهما على ســحْبِ ضحكةٍ من أعماقي، لا يمكنُ العبثُ بتلكَ الأعماقِ المسدودة، إنْ طالَها تغييرٌ ولو طفيفًا سيحوِّلُها إلى فوضى مرعبة، اثنا عشَرَ عامًا كمائة، أُشْبِعُ حوصلَتي بما تجودُ به الأيدي وأتطلعُ إلى عيونِهم من أســفل، وما الذي أجبرَني على ذلك؟ ألم الجوع؟ أنا لا أشعُرُ بالجوعِ ولا آكُلُ إلا إذا ذكَّرَني شــيءٌ مــا، لم يكُنْ بــي جــوعٌ أو احتياج، كنتُ ســلبيًّا فقــط، تركتُهُم يحملونني عن الطريقِ الغارقِ في دماءِ أهلي ويُصادِرُون السيارةَ والبيتَ والمــالَ للكنيســةِ حتى أبلُغَ الرشــد، ومَنْ أدراهم أني لــم أبلغْهُ بعد؟ وتركتُهم يعاملونني كخادِمٍ يمســحُ غائطَهم وبصاقَهم ويمشــي مطأطِئَ الرأسِ ممســوحَ الكرامة، وأنا الذي أعرفُ أنَّ لأبي وظيفةً كبيرةً ومعاشًــا وأملاكًا، لكني لم أعرفْ كيف أسألُ عنها واستسلمْتُ لإحسانِهم الكاذبِ وتسلطِهم القبيح، دائرًا في حلقةٍ تقبضُ على عنقي وتسلُخُ وجهي كلما نبتَتْ لهُ ملامح.

t.me/qurssan

مــررتُ على مبيتِ الأب متى صايغ حين أرسَــلَ إليَّ لأنظفَ الغرفةَ حتــى يعودَ مــن صلواته ووجدتُ في دفاتــره آلافَ الجنيهاتِ المقرونةَ باســمي مصاريفَ ولوازم لم أشمَّ رائحتَها حتى، أنهيتُ مهمتي وجلسْتُ فــي انتظــاره حتى عادَ مســتغربًا بقائــي، وعرضْتُ عليــه الأمرَ فنادى الشماسَ صمويل الأعرج وهمسَ لهُ أني أمُدُّ يدي وأتدخلُ فيما لا يعنيني ورأيتُ ليلةً لم يمُرّ عليَّ مثلُها، علَّقَني من ذراعيَّ في حديدةٍ تتدلى من ســقفِ القبوِ الذي أســكنُه، وانهالَ عليَّ بسلكِ كهرباء مفتول، لم يحضُرْ أحــدٌ لنجدتي ولا أعــدتُ الكَرَّة، وما زال ظهري يحملُ علامةً أو علامتَيْن من أثرِ العلقةِ القديمة.

والجزيــرةُ التي فتَحَتْ لنــا ذراعَيْها لكنها ابتلعَتْنا في بطنِها لا مخرَجَ ولا بديل، عامان مَرَّا تعلمتُ فيهما وعرفتُ المحبةَ والحنانَ وابتسَــمَتْ لي الدنيا أخيرًا، لكني خطوْتُ إلى شــبابي، أنضجَتْني التجاربُ وغلا في عروقي ســائلُ الحياة، تحَوَّلَ كلُّ ما حولي إلى جحيم، رأيتُهما يتهامسان ويتلامســان في بــراءةِ من لا يُعطي خوانة، لكنَّ كلَّ همســةٍ ولمســةٍ وإيماءةٍ بينهما كانت تَضَعُني في تنورٍ مشــتعل، ومَرَّت الأيامُ وتلصصْتُ على فعلِهما معًا فانهارَ كلُّ شيءٍ داخلي، ولم أتوقفْ عن التلصص حتى أنني لم أنشــغِلْ إلا بإشــاراتِ احتمــالِ لقائِهما معًا، حين كانت تنشُــرُ ســراويلَهما على حبلٍ داخليّ وتُحْكِــمُ البابَ خلفَها في أولِ النهارِ كنتُ أعــرفُ أنَّ بينهمــا لقاءً الليلــة، وكانا لا يلتقيان إلا في عُــرْيٍ كامل، ولم يمنعْني كونُهما أبويَّ عن استراقِ السمعِ والنظَر، لم يكُنْ السائلُ وحدهُ يغلي في عروقي بل جســدي كلُّهُ وعروقي نفسُــها تغلي وتطفحُ حتى تُغْرِقَ الملابسَ بالسائلِ الثخين.

كنتُ في كلِّ مرةٍ أعودُ إلى الكُوخِ يعصفُ ببالي ما رأيتُ وأستعيدهُ بتفاصيلَ تحرقُني وكم أطفَأَ البحرُ نارًا وهدَّأَ خاطرًا، لم تكُنْ فكرةُ الخروجِ من الجزيرةِ جديدةً عليَّ لكنّ العزمَ على تنفيذِها كان يخبو كلَّ مرةٍ والأنسَ بمينا وسالم يُعيدُ إليَّ رُشْدي فأحتضِنُ أشواكَ الوحدةِ النابتةِ داخلي وأنزفُ في صمتٍ وعذاب، وحين مضى أبي وخلَّفَنا وراءهُ خفتُ وعزمتُ على الهروبِ من كلِّ شيء، من وحدتي ولو جبتُ بحارَ الأرضِ كلَّها بحثًا عن أنثى، ومن يأسِنا المتشبثِ بتلكَ الكَوْمةِ من الرمالِ كأملٍ وحيد، ومن خيالاتِ أمي العاريةِ وغليانِ اللذةِ الحارق كلما أخَذَتْ راحتَها في وجودي كابنٍ لها لا يُبْصِرُ ما تُبْديهِ فتحاتُ الملابس.

وهأنذا وحيدٌ أكثرَ من أيِّ وقتٍ في حياتي، منفيٌّ يُحاصرُني كلُّ شيءٍ وليسَ في يدي سوى حفنةِ رملٍ وحبلٍ طرَفُهُ الآخَرُ ترحالٌ لا يُرَى آخِره، أتمددُ في جحيميَ الشخصيّ ويتسعُ لي كرداءٍ مطاط، وأستكنهُ الحكمةَ التي من أجلِها ضحَّى آدَمُ بنعيمه الأبديّ في مقابلِ لذةٍ وقتية، وهل حقًّا تابَ إلى خالقه من فعلِه، أم غرِقَ في لذَّته حتى قتلَهُ القذفُ ذات يومٍ بين أحضانِ امرأته وجاءَ له نسلٌ فكَرِهَ الراوي أنْ يُشَوهَ صورتَهُ في أذهانِ بنيه فغَيَّرَ النهايةَ من أجلِ خلاصِهم، وبَقِيَ الرفيقُ القديمُ رجيمًا يتلظى بالتلصصِ على اللذةِ التي لم ينَلْها ويُشَيْطِنُ العالَمَ للذين يمكنُهم التمتعُ بها، ورأى الربُّ ذلكَ غيرَ حسَن.

t.me/qurssan

- 6 -

منقسمًا إلى ألفِ جزءٍ قضيتُ عدةَ أيامٍ بلا معنى ولا غاية، أيامي غبارٌ ينثرهُ الوقتُ ورُوحي شــظايا ينثرُها الحزنُ في البحرِ كالرماد، لا طاقةَ لي على فعلِ شــيء ولا رغبةَ حتى تكمل الطريق إلى الاســتمناء، خواءٌ ذابل يترنحُ كسطحِ الماءِ الراقصِ أمامَه، ويعلوهُ دُوارٌ لا يتوقف.

وقالَ الربُّ الإلهُ: «كثُرَ شَرُّ الأرض، أبيدُ نسْلَ آدَمَ كما كثَّرْتُهم إلا نوحًا أبقيه». فبكى الشــيخُ حتى ضجَّ أهلُ الســماءِ وتوسَّطَ لأجله حتى أجنةُ الحيتان في محيطاتِها، فســمعَ له الله ولــهُ أعطى أمرًا ببناءِ فُلْكٍ عظيمٍ يحملُ من كلِّ نســلِ الحيواناتِ زوجًا ومن الناس، لأنهُ كان قد ســبقَتْ إرادةُ الــرب في هــلاكِ الجميع، وقال نوحٌ: «أكسِــبُ الوقتَ في هدايةِ ناسي»، فجمعَ الأشجارَ عشرين سنة وهذَّبَ الأخشابَ عشرين سنة وبنى فُلْكًا عظيمًا لم ترَ الأرضُ مِثْلَه، وكان في الناسِ شرٌّ وكبرياء فعمَدُوا إلى التقليلِ من الشيخِ والسخريةِ من بنائه العظيم، وقال لامرأته اليومَ يفورُ تنورُكِ». فضحِكَتْ منه، وقالتْ: «تخاريفُ كهلٍ وخيبةُ أمَل»، ونادى نوحٌ في أطرافِ الأرضِ على كلِّ ذي مخلبٍ وناب فاســتجابَتْ لهُ الطيورُ في أعشاشِها والوحوشُ في مرابضِها وآكامِها، وحين سالَ الماءُ في وسطِ داره نــادى بنيه فأطاعَــهُ ثلاثةٌ بزوجاتِهم وبقِيَ كنعانُ مــع أمّه وأهلِها حتى

حُمِلَتْ سفينةُ الخشبِ والحبالِ على ماءٍ جارٍ وخلَّفَت الخرابَ والعذاب. وكانت سنونَ قبلَ أنْ تعودَ للأرضِ خصوبتُها، وللكائناتِ شبقُها القديم.

لماذا خلقَ اللهُ الندم؟ فأرٌ خبيثٌ يتسللُ من شروخِ الذنبِ فينخرُ عُمرَنا ويغرزُ في أرواحِنا وهَنَ الفِصام، لماذا خلقَ اللهُ الفئران؟

أيامٌ بلا رائحة، دَوْرٌ مستمرٌ من البردِ الذي يَسُدُّ الأنفَ والنفَس، سخونةٌ تبخُّ صهدَها تحتَ الجلد، وصداعٌ كالسُّكْر يُنشئُ برزخًا مُرْهِقًا بين الحقيقةِ والسراب، وكوابيس، في كلِّ شيء كوابيس، فئرانٌ تقرضُ تحتَ إبطي وإبَرٌ في جسدي، ضبابٌ وحريقٌ في العين والعقلِ ورعبٌ من الموتِ الوشيك، نسيانًا يكونُ قدرُكَ يا بيشوي الطيب في النهاية، جثمانًا مُلْقًى على رمالٍ غريبة حتى يأكلَكَ دودُكَ أو جوارحُ السماء وتُنسَى كما خفتَ دائمًا، تُنسَى كأنكَ لم تكُنْ.

t.me/qurssan

الفصلُ الرابع

- 1 -

كنــا قد انتهيْنــا من بناءِ قــاربٍ جميل من جريدِ النخــلِ وجذوعِه، وأودَعْنــاهُ فــي عُشَّــةٍ قريبةٍ من الشــاطئِ بنيناها من بقايا الأخشــاب وأغصانِ الأشــجار، كان مينا حزينًا يعملُ بانتحار لينسَــى غيابَ بيشوي، وأبي شــاردٌ معظَمَ الوقت يساعدُنا بجِسٍّ ميت، ويتحركُ معنا كشبحٍ بلا رُوح. أكثرُ من ثلاثةِ شهورٍ لم نضْحَكْ فيها سوى مرة، حين حكى مينا لهُ قصةَ آدمَ التي حكاها لنا بيشوي في التبة، حكى مينا رغبةً في أنْ يكمِلَ أبــي له القصة التي لم يُكمِلْها بيشــوي، اســتمعَ له أبــي وصفَّقَ بيدَيْه كطفــلٍ فَرِح، وقــالَ إنَّ أحدًا لن يُكمِلَ القصةَ كبيشــوي لأنها قصتُه هو وظــلَّ يحكــي لنا عن الأســاطير وتداخُلِها مــع بنيةِ الأديــانِ والروايات المقدَّسة وكان في أفضلِ حالاتِه، تشجَّعْتُ وسألتُه: لماذا لم يَعُدْ يُعَلِّمُنا؟ فغاضَت ابتسامتُه وقال إنَّهُ لم يَعُدْ لديه ما يُقَدِّمُهُ لنا، وإنَّ أمي أخذَتْ رُوحَهُ معها رهينة حتى يلحقَ بها، لم يكُنْ به جنونٌ لما قالَ ذلك. انتهيْنا من بناءِ القاربِ واختباره ثم ســحبْناهُ إلى العشــةِ وعُدْنا كما طلَبَ أبي إلى الكهف، لم نكدْ نطأُ أرضَ الكهفِ حتى أبصرْنا ســفينةَ الغرباء تشُقُّ البحرَ على بُعْدِ يومٍ أو بعضِ يوم.

أشــارَ أبي بإخفاءِ أمرِ القاربِ، ووقفْنا على الشاطئِ نستقبلُ السفينةَ حتى شــحطَتْ في الرمالِ ونزلَ منها أشــتاتٌ من الناسِ لم أعرفْ كيفَ

t.me/qurssan

رآهُم أبي دون عينين لكنَّ كلَّ ما أعرفُه أنَّ يدهُ كانت تربتُ على كتفي وثَقْلَ تَربِيتُه حين هبطوا على أرضِ الجزيرةِ بملابسِهم الغريبةِ وسِحَنِهم المُقْبِضة، ولم يكَدْ عددُهم يكتملُ رجالًا ونســاءً وأطفالًا حتى أطَلَّ من خلفِ الصفوفِ رجُلٌ ضخمُ الجثةِ يســحبُ في يديْهِ أســيرًا مُقيَّدَ اليدَيْن والرِّجْلَيْن... كان بيشوي.

فــكَّ الغريبُ قيدهُ ودفعَهُ إلينا، فَرِحْنا لكــنَّ ثقَلًا في الأجواءِ جعلَها فرحةً معنوية لم تتجاوز القلوب، إلا مينا جرى إليه وساعدهُ في النهوض، ووقفْنا في مواجهةِ القادمين بجوارِ أبي الذي رفعَ صوتَهُ كأنهُ ينادي :

- ظننتُهُ طوفانًا أغرَقَ الأرضَ كلَّها، أو مصرَ على الأقل، بشرى خيرٍ أنَّ غيرَنا نجا.

- لا نعرفُ منتهى الطوفان، ولم نلقَ في طريقِنا إلا الجزيرةَ القاحلة التي وجدْنا عليها ابنَكم وقاربَه.

- أهلًا بكم، تفضَّلُوا، من أيِّ البلادِ أتيتم؟

- لســنا ضيوفًا يا سَــيِّد، ولنا في الجزيرةِ مثلَكَ تمامًا، لا يُهِمُّ من أينَ أتيْنــا، المهمُّ أننا هنــا الآن، لكَ كهفُكَ الذي تســكُنُهُ وقطعةُ أرضٍ تزرعُها، ولنا ما بقِيَ قسمةَ عدْل.

لم يَقُلْ أبي شــيئًا، اســتدارَ وأخذنا في يدهِ وأغلَقَ بابَ الكهفِ في وجوهِهــم، لم يتوقفْ بيشــوي عــن البكاء، وخرَجَــتْ كلماتُه متقطعةً ممضوغةً عن البحرِ الكبير الذي لا نهايةَ له، وعن مرضٍ ألمَّ به وقراصنةٍ حملُوهُ واســتنطقوه، وحبِّ فتاةٍ ميتة ومحاولاتِ هروبٍ فاشلة، وكشفَ

ظهرهُ عن آثارِ جَلْدٍ قديمٍ وحروقٍ حديثة، ضمَّهُ أبي إلى صدره وأسكَتَه، جمعَنا في حِجْره وقالَ احفظوا موضعَ القاربِ ستحتاجونَهُ قريبًا، سألَنا بيشويْ عن الأمِّ صفية وانهارَ حين عرَفَ بمرضِها في أثَره، لكنَّ أبي احتضَنَهُ أكثرَ وهدَّأه، قبلَ أنْ ننامَ طرقَ بابُ الكهفِ مرتَيْن فخرجتُ لأجدَ حجرًا ألقاهُ أطفالٌ يقفون على بُعْدٍ يخرجونَ ألسنتَهم ويتراقصون مُتَحَدِّين، قذفْتُ الحجرَ فأصابَ قدمَ واحدٍ منهم، انحنيتُ لأحملَ الحجرَ الآخَر فركضوا وعرَجَ الذي أصابَهُ الحجرُ الأول، قالَ أبي من ركنٍ مظلِم لا تترُكْ حقَّكَ يا سالم ولكن حاذرْ أنْ تتورطَ معهم، هؤلاء جاءوا ليأخذوا ما يستطيعون، لا ما يحتاجون، قلتُ: أطفالٌ يستفزونني. قالَ: وإنْ يكُن.

صحوْنا قبلَ انفلاقِ الصبحِ وارتحالِ النجوم، نكزَتْنا عصا أبي وقالَ: نمضي الآن، حملْنا طعَامَ النهارِ وسِرْنا، تحسَّنَتْ قدَمُهُ المشلولةُ قليلًا، فكان يسابقُنا ويضحكُ معنا أكثرَ من المعتاد، مرَرْنا عليهم نائمينَ في مجموعاتٍ مُبعثَرةٍ على طولِ الطريقِ وحين وصَلْنا إلى الأرضِ المزروعة أعطانا أبي مقاييسَ دقيقة لقطعةِ الأرضِ التي يريدُها وكانت تُطِلُّ على البِرْكةِ وتمتدُّ في زمامِها القناةُ التي توصِّلُ الماءَ إلى الكهف، وعمِلْنا طوالَ النهارِ في تسييجِها ودَقِّ علاماتٍ على حدودِها، لم يُعْجِبْنا تركُ بقيةِ الأرضِ التي استصلحناها وزرعناها لهم لكنهُ قالَ: سنشاركُهم الجزءَ برغبتِنا أو يطردوننا من الكُلّ، ثارَ بيشوي فقالَ له أبي: إنَّ الوقتَ قد حانَ ليحكي ما حدثَ له حين هجَرَنا.

t.me/qurssan

كَرِهْتُ عجزَ الأعمى واستسلامه ورأيتُ مثلَ ذلك في عينِ مينا بينما شرعَ بيشوي يحكي كيفَ استسلمَ للموتِ على جزيرةٍ مهجورة وأفاقَ بعد أيامٍ من اضطرابِ الوعي على مركبِ الغرباء، وكانت تمرِّضُهُ منهم فتاةٌ جميلة، وقعَتْ في قلبه أولَ ما تلقَّفَتْها عيناه، **كأنها الحياةُ تكشفُ نفسَها لأولِ مرة فيولَدُ الإنسانُ من جديد، أحببتُها وأحبَّتْني. كان هؤلاء الغرباءُ خليطًا عجيبًا، انتشَلَهُم صيادونَ تنقلوا بين السفن والمراكب وتبدَّلَت الوجوهُ بين هلكَى ومفقودين حتى إنَّ شيرينَ لا تعرفُ أحدًا من أولئكَ الغرباءِ ويحكونَ أنَّ أولَ من بدأَ هذا التقليدَ كان صيادًا من دمياطَ، تهدَّمَتْ قريتُه وفقدَ عائلته في الطوفانِ الكبير، فسخَّرَ مركبَ صيده لانتشالِ مَنْ يلقاهُ في الماءِ حيًّا، حتى قامتْ عاصفةٌ تلاعبَتْ بمركبِ الصيادِ وقصَمَتْ ظهرَها فرأى الرجُلُ الخبيرُ بالبحرِ ما لم يرهُ سواه وأطرَقَ إلى الماءِ ثم رفعَ رأسَهُ صارخًا فيهم أنَّ البحرَ يطلُبُ فديةً لهم جميعًا ولا بُدَّ أنْ يُلقي أحدُهم بنفسه لتهدأَ العاصفةُ وينجو الجميع، لكنَّ أحدًا لم يُلْقِ بنفسه في الماءِ، فقال الصيادُ وهو يخلعُ ملابسَه: «فلاحٌ في صباحِ طوبة لَقِيَ ثعبانًا يتجمدُ من البرد فرَقَّ له وحملَهُ في الصديري ليتدفأَ وسرى الدمُ في عروقِ الثعبان وشمَّ رائحةَ الجسدِ الحيِّ فلدغَهُ بجوارِ قلبِه، خَرَّ الفلاحُ ميتًا وسرَحَ الثعبانُ في البيوتِ والغيطان... أنتم ثعابينُ وإنْ لم تُدرِكوا ذلك بعد، وأنا كنتُ قديسًا ولم أكنْ عرافًا، فأنزلتُ المعروفَ بغيرِ أهله فليَكُنْ باطنُ البحرِ خيرًا لي من ظاهره» ثم ألقى بنفسه في الماء ولم يَطْفُ له جسد، لكنْ هدأَت العاصفة، وقالت شيرين: إنهم أخذوني من الجزيرةِ وبي رمَقٌ ذابل ليفتدوا أنفسَهم بي حين تهُبُّ عاصفة، حكموا بإعدامِ اسمي**

القديـمِ أيًّـا كانَ، ونادَوْنـي جميعًا فـادي، لكنها افتدَتْنـي من الموتِ لنفسِها، ثم افتدَتْني بنفسِها.

توقـفَ عن الحكي ودخلَ فـي نوبةِ بكاءٍ تخلَّلَهـا الكثيرُ من الكلامِ المتقطِّع ثم تابع:

أيـامٌ فوقَ العشـرين قضيتُها معهـم، نهارُها في صيـدٍ و«تمقيق» نمسـحُ الماءَ ونغوصُ، إذا لاحَ ظلٌّ تحتَهُ نسـتخرجُ اللقيةَ ونضعُها بين يدَيْ سـقراط يأخُذُ ما يشـاءُ ويعطينا ما يشاء، أمَّا الليلُ فكان في أولِ الأمرِ ثقيلًا طويلًا لا ينقضي أكثرهُ إلا وأنا أفكرُ في الانتحار، لا يمنعُني إلا صورُكـم فـي ذاكرتي وأملي في أنْ تلقي بي تلكَ السـفينةُ الطوافةُ على أرضٍ ناجية، حتى أقبَلَتْ شيرينُ عليَّ بنفسِها دون أنْ تسألَني عن اسـمي ولا ديني ولا وطني، تكبرُني بعدةِ سـنواتٍ، فتَحَتْ ليَ الأبوابَ فلَحِقْتُ بها إلى العُمرِ الذي وصَلَتْه، وليسَ أقربَ في العُمْرِ من حبيبَيْن يقتسـمان الفِراش، تنسحقُ بين جسـديهِما السنون وتحترقُ في لهيبِ لذتِهما الفوارق، ألقَتْ بنفسِـها في أحضاني وعلَّمَتْني السعادة، وقبلَها لم أعرفْ أنَّ السعادةَ قابلةٌ للتعلُّم .

صرْنا بعد مراتٍ قليلة لا نتلذذُ إلا عاريَيْن، فعرَفَتْ ديني من صليبِ رُسْـغي فأجفلَتْ وذُهِلَتْ، وأُسْقِطَ في يدي إلا أنني تذكرتُ كلماتِكَ يا أبي، أومضَتْ في عقلي فانطلَقَ لساني عن إيمانٍ ومحبةٍ لها، قلتُ إنني لا يعنينـي دينُها وإنها حين أسـلمَتْني نفسَـها لم تكُـنْ تعرفُ حقيقةَ ديني؛ فليسَ عليها ذنب، وإنْ كانت تريدُني أنْ أغيِّرَ دينَ وَشْـمي من أجلِها فلن أعترض، لكنَّ السـماءَ التي تدمرُ العالَمَ بتلكَ القسوةِ وتُهَيِّئُ

t.me/qurssan

لأحــداثِ نهايته وقيامتــه تُراها تعبأُ باختلافِ ديانةِ حبيبَيْن يمارِســان طقــسَ الحياةِ الوحيدَ في هذا الخراب؟! قالت: كلامُكَ أكبرُ من سِــنِّكَ وهجَرَتْني، لكنْ بَقِيَتْ على محبتي ولم أنسَــها قطُّ، لم تتأخَّر العاصفةُ الدوريةُ عن موعدِها وأتَتْ تزأرُ وتتوعدُ فوقفَ ســقراطُ رئيسُ المركب وخطَبَ فينا أنَّ البحرَ يطلُبُ الفداءَ وأنَّ الطقسَ لا يمكنُ مخالفتُه منذُ انحسَرَ الطوفانُ الأول، وأنَّ واحدًا يفتدي الجماعةَ بنفسه شجاعة، نظرَ الجميــعُ إلــيَّ بما أني آخِــرُ المنضمين إليهــم؛ فعرفْتُ أنَّني ســأُكَبَّلُ بالأحجــارِ وأُلقى في القاع، لكنَّ نداءً نَدَّ عن أحدِ الواقفين وأشــارَ إلى حركةٍ في الماء وكانت شــيرين قد ألقَتْ بنفسِــها فداءً لي أو إحساسًا بالذنــبِ، فألقيْتُ بنفســي خلفَها، لكني جبنتُ عــن قطعِ الطريقِ إلى المــوتِ خلفَهــا، انتشــلوني من الماءِ مــرةً أخرى وحبســوني في قبوِ المركب، وكلما حاولتُ الهروبَ قبضوا عليَّ وعذَّبوني وحبسوني ادخارًا للعاصفــةِ القادمة وفي إحدى المراتِ صرخْتُ تحتَ وطأةِ التعذيبِ أنَّ لــي أهلًا وإخوةً على جزيرةٍ في المــكانِ الفلانيِّ، وأحضرْتُهم إلى هنا، وكلما فكرْتُ فيمَا دفعَني إلى ذلك لا أجِدُ تفسيرًا إلا الغباءَ أو الهذيان.

- 2 -

انتصــفَ ليلٌ ثانٍ والغربــاءُ يُهيئــونَ لإقامتِهم ونعتزلُهم قــدْرَ الإمكان، وانتصَفَ ليلٌ ثالثٌ وضوضاؤُهم تُفْسِــدُ الليلَ وتســلَخُ منهُ رزانتَهُ المعتادة، شُفِيَتْ جراحُ بيشوي وعادَ إلينا في أغلبِ الوقتِ يشاكسُنا ونشاكسُه.

- أين الحقيقةُ يا أبي في كلِّ ما لقيناه؟ في الديرِ المُزَخرَفِ بكلماتِ الرَّبِّ وأيقونات القديسين وترانيمِ الأعياد؟ أم في القلايةِ البدائيةِ وعزلتِهــا عن العالَم؟ هل هي في إقبالِ شــيرين عليَّ بكُلِّ قطعةٍ منها أمْ في تمزُّقِها وإجفالِها من ديني وخوفِها من دينِها؟ هل هي فــي لقائِنــا بكُم أم فــي مَوتِ أمــي صفيةَ بســببي؟ أم هي في الطوفانِ الذي أهلَكَ كلَّ شــيءٍ وأبقانا كأننا عبرةٌ أو ســقطُ متاعٍ، ربما سيأتي يومٌ ويأخذُنا كما أخَذَ كلَّ مَن سوانا؟ أين الحقيقةُ في كلِّ ذلك؟ في الســماءِ أم في الأرضِ أم في البحر؟ في الموتِ أم في الحياة؟ في الحضارةِ أم الوحشية؟

- ليتَ الإجابةَ تكونُ بتلكَ السهولةِ التي تنهمرُ بها أسئلتُكَ يا بيشوي. الإجابــةُ لا تعطي ضمانةً يا بني، أنتَ تُعطــي الحقيقةَ اختياراتٍ وتطلُبُ منها ارتداءَ واحدٍ يناسبُها والحقيقةُ فسيفساء من كلِّ ذلك يا عزيزي، وليتها فسيفساء ثابتةُ الألوان ربما نستطيعُ حينها حفظَ مــكانِ كلِّ لــونٍ وتوقُّعَه، لكنها تستســلمُ لدرجةِ الضــوءِ ومكانه وعلاقته بالأشــياءِ المحيطة، فتكتســبُ وجودَها من إدراكِنا نحنُ

t.me/qurssan

لهـا، الحقيقةُ ونحنُ حزانى غيرُها ونحنُ فَرِحون، والحقيقةُ ونحنُ وحيدون غيرُ الحقيقةِ بين الآخَرين، والحقيقةُ من عدةِ أعوامٍ غيرُ الحقيقةِ الآنَ أو بعد.

وانهارَ في عماهُ الذي غلَّفَنا معهُ كأننا جميعًا داخلَ حُقٍّ مُظلِم.

- **ليتها بتلكَ السـهولةِ التي تريدُها يا بني! يقضي الناسُ أعمارَهم وأعمـارًا مع أعمارِهم في استكشـافِ حقيقةِ كلمـةٍ أو معنى أو دلالـة وأنتَ تريدُ حقيقـةَ الوجود، هل سـيريحُكَ أنْ أخبرَكَ أنَّ العدَمَ هو الحقيقة، أنَّ السماءَ وهمٌ بدائيٌّ اخترَعَهُ صيادٌ جائعٌ في بحثِـهِ عن أملٍ يُضَيِّقُ المسـافةَ بينه وبين فريسـته التي تتوقفُ عليهـا حياتُه؟ وأنَّ المـوتَ مجردُ ذوبانٍ فـي ذراتِ الترابِ التي خرَجْنـا منها يُحَلِّلُنا إلى عناصرِنا الكيميائيةِ الأساسـية من كربون وهيدروجين وأوكسجين؟ وهل حينها سيكونُ لأيِّ شيءٍ نشعُرُ به معنى يتجاوزُ إدراكَ الحواسِّ القاصر؟ هل سيكونُ ثمةَ حبٌّ بينكَ وبين شـيرين، أو بيني وبين صفية، أو بيني وبينكم؟ هل سيكونُ ثمةَ عزاءٌ يحملُنا حين تذوبُ الأرضُ والسـماءُ ونبقى معلَّقينَ في فـراغِ الحزنِ يسـحبُنا إلى عدمٍ لا نهائيٍّ؟ هل سـيكونُ لصباحٍ أو مسـاءٍ أو حيـاةٍ أو مـوتٍ أيُّ معنى سـوى العدَم؟ لا يـا أبنائي، الحقيقـةُ ليسـت غايةً في ذاتِهـا، بل ذاتُكَ أنتَ هـي الغاية، لا تُضَحِّـي بها من أجلِ غايةٍ أخرى ولـو كانت الحقيقة، إذا لم تكُن الحقيقةُ وسـيلةً لحياةٍ أكثـرَ راحةً ورحلةٍ أكثـرَ أمنًا فلتعِشْ في الزيفِ الذي تُحبُّه على أنهُ الحقيقةُ الوحيدة، وليس من حقِّ أحدٍ ولا يجبُ أنْ تسمحَ لأحدٍ أنْ يهدمَ زيفَكَ الذي اخترتَ العيشَ فيه،**

طوالَ عُمــري أتنقلُ بين الكفرِ والإيمانِ وبين التمسُّــكِ والتخلي مترددًا حائرًا مثقَلًا بذنبٍ لا أذكره، لكنهُ يســكُنُ جيناتي، يُحَمِّلُني خطيئةً قديمةً لم أرتكبْها لكنَّها تُطِلُّ من كلِّ اختيارٍ لتُفسِــدَ عليَّ متعةَ اختياري وتقصِفَ احتفائي بإنســانيتي، الوقتُ الوحيدُ الذي شــعرتُ فيه بذاتــي حين تحررتُ مــن كلِّ شــيء، الحريةُ كانت الحقيقــةَ الوحيدة أو رائحةَ الحقيقةِ إنْ أردتم تعبيرًا أدقَّ، الحريةُ يا بيشــوي ويا مينا ويا ســالم، لا ربَّ في الســماءِ ولا شيطانَ في الظلام ولا دينَ ولا تاريخَ ولا قانونَ، كلُّ ذلكَ سوفَ يتلاشى حين تصيرُ إلهَ نفسِكَ وشيطانَها وحين تكونُ مركزَ الدائرةِ ومحورَ الدوران.

- لكننا يا أبي لسنا حقيقيينَ في ذاتِنا، تنقصُنا معرفةٌ كثيرة، ويُضَبِّبُ طرُقَنــا الكثيرُ مــن الحيرة، كما أنكَ تتحدثُ عــن حريةٍ مثاليةٍ لا تصطدمُ بحرياتِ الآخَرينَ أحيانًا وشُــرورِهم أحيانًا وخطةِ الأقدارِ أحيانًا كثيرة، فأين هي تلكَ الحرية؟

- ما زلتَ تخطئُ في الســؤال يا بنيَّ، لم يقُلْ أحدٌ إنَّ الحقيقةَ هي الكمال، الحقيقةُ تشــبهُنا أكثرَ مما تتخيلُ يا بيشوي، تشبهُ نقصَنا وجهلَنا تشبهُ آدمَ الذي صنعته بنفسِكَ منفيًّا غارقًا في البحثِ عن معنى وعن أنيس، الحقيقةُ ذاتُها ناقصة لا تســتطيعُ إدراكَ نفسِها يا بُنَيَّ، أوديبُ كان مَلِكًا ومحاربًا عملاقًا ذكيًّا وقفَ ذاتَ يومٍ في مواجهةِ الوحش وقتلَهُ حين عرفَ نفسَــه، لكنهُ لم يلبثْ أنْ خسِرَ كلَّ شــيءٍ حين أدرَكَ بقيــةَ الحقيقة، كُنْ حُرًّا لتتحملَ مســئوليةَ أفعالِــكَ واختياراتِكَ، لا يســتطيعُ أحدٌ تحملَ الحريةِ كاملة كما لا يســتطيعُ أحدٌ تحملَ الحقيقةِ كاملة، آه يا عزيزي بيشوي الطيب

t.me/qurssan

لــو كانت لديَّ إجابةٌ ســهلة ومريحة، ربما كنتُ غيرَ هذا الأعمى الذي يجلسُ معكَ الآن تحاكمُهُ على فسادِ العالَم.

سكتَ أبي، وتهدجَ صوتُهُ بالدموع، لم تكُنْ كلماتُه عصيةً على الفهمِ، لكنْ كان يغلفُها بمشــاعرَ تجعلُها أكثرَ قوةً من أنْ تنحصِرَ في رءوسِــنا، وكنا صغارًا في الحقيقةِ حتى إنني شكَكْتُ في قدرة بيشوي على فهمِها، لكنَّ تأثُّرهُ واتساعَ عينيه، كأنَّ كلَّ كلمةٍ يسمعُها إسقاطٌ عليه هو، وتعني شــيئًا محددًا في حياته، جعلاني أراجعُ نفســي، شعرتُ في ذلك الوقتِ أننــا نودعُ بعضَنــا، أعمى يبلُغُ الثلاثين أو أقلَّ قليــلا وصبيةٌ بين الثالثة عشرة والعاشرة والثامنة يضعون الحياةَ وراءَهم ويحتفون بأنفسِهم.

اســتقرَّ الغرباءُ الذيــن لم يعودوا غرباء، وتحدثوا مــع أبي في مواردِ الجزيرةِ وأساسياتِ الحياةِ فيها واكتسبَ احترامَهم كما يكتسبُ احترامَ كلِّ مَنْ يعرفُه، حتى نصَّبَ ســقراطُ نفسَــهُ رئيسًــا على الجميع، كرهتُ ذلك وتعجبتُ من تنازُلِ أبي عن سلطةِ التحكمِ في كلِّ شيء، وفوجئتُ برغبته في أنْ نمُرَّ على الناسِ لنعلنَ افتتاحَ مدرسةٍ للأطفال هو مُعَلِّمُها، وفوجئتُ أكثرَ بقدومِ الأطفالِ إليه، لكنَّ دهشــتي ذابتْ في مهامٍّ عملي كمســاعدٍ للمعلم أحيانًا ومزارعٍ في الأرضِ أحيانًا أخرى، وانهمكْتُ في حياةٍ طبيعيةٍ لم يُنَغِّصْها إلا غيابُ الطيورِ عن العالَم ومناوشاتُ الصغارِ التي لا تنتهي.

كنتُ أنظرُ للجميعِ على أنهم صغارٌ حتى بيشــوي ومينا، وأستمتعُ بــدَوْري حيــن أمــارسُ ســلطةً ممنوحةً مــن المعلِّمِ الأعمــى، وأتابعُ مجتمعَنــا الصغيرَ يتكونُ ويكبر أمامي كأنهُ صديــقٌ عــادَ من غربــة.

- 3 -

كان فــي الصغارِ مَنْ فقدوا عائلاتِهــم في الرحلة، ومنهم مَنْ لا يعبأُ بهم أحدٌ ومنهم مَنْ يهربون مِن العمل أو يُرْسِلُهم أهلُهم إلينا ليتخلصوا منهم، وكان الأعمى نشــيطًا يقظًا يُعَلِّمُنا بشغفٍ ويَبُثُّ في كلماته حياةً غريبة، حياةً تشــبِهُ تمامًا حياةَ غريقٍ نجــا من الموتِ بأعجوبة فمضى ينفــخُ الرُّوحَ فــي كلِّ جماد، لم نعُدْ ننفردُ به إلا قبــلَ أنْ يدهسَ النومُ رءوسَنا بقليل، وصار جميعُ الأطفالِ شركاءَ لنا في غنيمةِ التعلُّم والصحبة، الشــحات وســامح ونســمة ورانيا وحمادة وليلى وطه، لا تكادُ الشمسُ تشــرقُ حتى يأتوا راكضين يطرُقون بابَ الكهفِ وينادون الأســتاذ علاء فيخرجُ إليهم ويكملُ تعليمَهم من حيثُ انتهى أمس.

وانصرمَتْ شــهورُ الصَّحْوِ وجاءت شــهورُ الشــتاءِ على الأبواب، كان الجميــعُ يُعِــدُّونَ العُدَّةَ للمجهولِ الذي يســتثقلونَ زيارتَه، وأشــارَ أبي عليهم ببناءِ حوائطَ من الرمالِ ينقلونها من الجبلِ في وسطِ الجزيرةِ إلى الشــاطئِ فتعمَلُ كمصداتٍ إنْ علا الماء، وأخذَ ســقراطُ بمشورته وأمَرَ الجميعَ في العمَلِ بالتناوب، حتى اكتملَ الحائطُ الرمليُّ وبدا منيعًا على المــوجِ نَقِفُ عليه نخاطبُ المالحَ الكبير بأهازيجَ لا نعرفُ مَنْ أولُ مَنْ

t.me/qurssan

غنَّاهـا، لكنهـا تحوَّلَـتْ إلى طقسٍ يومـيٍّ كالصلاةِ لوحـشٍ نائمٍ نرجو ألا يستيقظ.

لا أذكـرُ بالضبـطِ متى بدأَت الأمورُ تسـوءُ بين سـقراط وأبي، لكنَّ سلطةَ الرئيسِ الفعلية كانت تصطدمُ أحيانًا بسلطةِ الأستاذِ الروحية حين يكونُ ثمةَ اختلافٌ في وجهاتِ النظر، وعمَّقَ الناسُ نقاطَ الخلافِ بينهما بانحيازِهم إلى رأيِ الأسـتاذ رغم تنفيذِهم لأوامرِ الرئيس دائمًا خوفًا أو مُكْرَهين، وفي مرحلةٍ ما من هذا الخلافِ أرسَـلَ سـقراطُ في طلبه في ليلـةٍ باردة تُبَشِّـرُ بصبحٍ عاصف، فرَدَّ بخشـونةٍ، لـم أعهدْها فيه وقال لرسـولِ سـقراط: إنَّ الأعمى أثقلُ من أنْ يسيرَ إلى أحد، والكهفُ يُغْلَقُ بحجرٍ يسـهُلُ ركلُه فمَنْ أرادَ الحديثَ فليأتِ بنفسِـه، ولم يكَد الرسولُ يغادرُ حتى أغلَقَ أبي الكهفَ وناداني.

- في أرضِ مَنْ يوجدُ القاربُ القديم؟ هل وجدوه؟

- لم يصِلُوا إلى الشاطئِ البعيدِ بعدُ يا أبي، ما زالَ في مكانِه.

- عليكم إذًا أنْ تسـتمعوا إليَّ فربما يكـونُ ذلك إرثي ولا تحصلون مني على سـواه، إذا مسَّني مكروهٌ فلا تنظروا خلفَكم، اذهبوا إلى القـاربِ واخرجوا من هذه الجزيـرةِ الملعونة، احملْ إخوتَكَ على القاربِ يا بيشـوي وابحثوا عن العالَم، العالَم الحقيقيّ، لا تسـكنوا جزيـرةً ولا تتوقفوا إلا على يابسـةٍ ممتدة، فلـديَّ حدْسٌ أنَّ لهذا البحرِ آخِرًا عليكم أنْ تصلوا إليه.

هلعَ بيشــوي واصفَرَّ وجهُه، ولم يكُنْ يعــرفُ عن القاربِ بعدُ، لكنهُ ازدردَ ريقَهُ وخرجَتْ كلماتُه تفحُّ كأنَّ في حلقه نارًا «**وأنتَ يا أبي؟**».

ابتسمَ بنصفِ وجهه ومسَّدَ الأرضَ بكفِّه: «هنا يا بيشوي، هنا تنتهي رحلتــي، هنا وجدتُ الحقيقةَ الوحيدةَ التي تشــبهُني ولن أغادرَ إلا في كنَفِها، إني أشُمُّ ريحَ صفية».

طُــرِقَ البابُ بعنفٍ واقتحمَهُ خمســةٌ من رجالِ ســقراط، فقامَ أبي إليهم ثمَّ نظرَ إلينا بعينه العمياءِ مبتسمًا وخرَج.

t.me/qurssan

- 4 -

تسلَّلْنا إلى بيتِ سقراطَ نستكشفُ ما سيسفرُ عنه لقاؤهما، واختبأْنا خلفَ شــجرةٍ جافة حتى رأينا الولد طه يخرجُ من البيت فاســتوقفناه، قالَ إنَّهم سيقدمونَ الأستاذَ فداءً للبحرِ في العاصفةِ القادمة، طلبنا منهُ أنْ يدخُلَ ليعرفَ مكانَ الأستاذ دون أنْ يلفِتَ الأنظار، وطالَ مُكثُهُ حتى أشارَ إلينا بالالتفافِ فدُرْنا حولَ البيتِ وحملَني بيشوي على كتِفه فرأيتُ أبــي يجلــسُ في ركــنٍ مقيدًا بحبــل. صفَّرْتُ لــه فاقتربَ مــن النافذةِ ورفعَ رأسَه.

- افعلوا كما أمرتُ يا سالم، لا تبيتوا هنا الليلةَ، اخرجوا الآن.

كنتُ أبكي ولا أستطيعُ الكلامَ فأنزلَني بيشوي وحملْتُهُ أنا ومينا

- لن نتركَكَ يا أبي، ســنقلبُ الجزيرةَ رأسًــا علــى عقِب، ولن نترُكَ هؤلاء الكلابَ ينهشونكَ، هذه أرضُنا وأرضُك، لن نتركَك.

لكنَّ صوتَ أبي جاءَ من الداخلِ مكتومًا وحازمًا: «اخرجوا يا حمقى، لا تقلقــوا عليَّ، إنني أتربصُ بهم حتى أطمئــنَّ عليكم وحين أثقُ أنكم صرتُم في أمانٍ أعرفُ ما سأفعل، لا تعودوا إلى الكهف، افعلوا ما أمرتُكم به، هيا لا تُضِيعوا الوقتَ وتُضَيِّعوني».

هبطَ بيشــوي ووقفْنا نبكــي معًا ثم جذبَنا مينا مــن أيدينا وركَضْنا مُغَيَّبين، وصَلْنا عشــةَ الشــاطئِ البعيدِ وما زالَ في الليــلِ بقية، قطَعْنا الحبلَ الــذي يُثَبِّتُ القاربَ ودفعناهُ إلى المــاء، وركِبْنا وجدَّفْنا، فلاحتْ ظــلالٌ خلفَ الأشــجار تشــيرُ إليْنا، دقَّقْتُ النظرَ وهمســتُ لبيشــوي: «الأولاد» أوقفْنا التجديفَ وأشَــرْنا إليهم ونزلَ بيشــوي ومينا فحملوهم ووضعوهــم فــي القــارب، وانطلَــقَ قاربُنا وقلوبُنــا تركُضُ فــوقَ الماءِ متطلعينَ إلى أفقٍ يوشكُ أنْ يحتقنَ بسوادِ الغيوم وخلفَنا جزيرةٌ توشكُ على الاســتيقاظِ من سُــباتِها الذي نتمنى أنْ يطُولَ قليلًا ليُعطينا فرصةً للفرار.

تمت بحمد الله

القاهرة- بلقاس

مايو 2016- سبتمبر 2017

t.me/qurssan

نهضة مصر
للنشر